الإنسان

بين

الخلق والتطور

بقلم

الشيخ محمد حسن آل ياسين



منشورات المكتب العالمي بيروت
للطباعة والنشر

الإنسان

بين

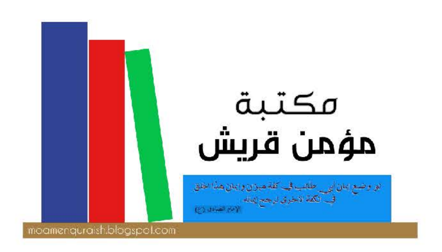
الخلق و التطور

الإنسان
بين
الخلق والتطوّر

القسم الأول

بقلم
الشيخ محمد حسن آل ياسين

المكتب العالمي
للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الاولى – بغداد ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م
الطبعة الثانية – القاهرة ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

* * *

وقفنا في ختام بحثنا عن « المادة » [1] عند انطلاقة الخلية الحية الاولى على سطح هذا الكوكب ، بعد أن ثبت بالحجة والبرهان ، وبالشكل الذي لا يرقى اليه الشك ، انها انطلاقة مصممة قائمة على التخطيط الدقيق والتدبير المدهش ، وعلى نحو رائع ينفي احتمال «العفوية» و «العشوائية » ، ويرفض ارجاع

١ - يراجع كتابنا «المادة بين الازلية والحدوث » / الطبعة الاولى/بغداد ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م ، والطبعة الثانية/بيروت من العام نفسه .

كل ذلك الى حركة المادة اللاواعية واللامدركة والمجردة من القصد والتدبير .

وفي الحقيقة ،فان أية فرضية من فرضيات الفلسفة المادية، وأية فكرة من أفكار علم الاحياء ، وأية نظرية من نظريات العلم المعاصر ، لم تستطع ان تقدم لنا – على وجه مقنع ومطمئن – تعليلاً مقبولاً لادعاء انطلاق الخلية الاولى من المادة الصماء بسبب «صدفة » عابرة او «ضرورة» غير مفهومة . بل ان كل الادلة الفلسفية والعلمية تؤكد وجود يد غيبية خفية ؛ أو – على حد تعبير اسماعيل مظهر – وجود « حادث خطير وقع فاصلاً بين عصرين : عصر ما قبل الخلية وعصر ما بعد الخلية »[١] .

وهكذا كانت تلك الفرضيات والاقاويل – على الرغم من جعجعتها الهائلة – عاجزة عن طمس علاقة الخلية الاولى بمبدعها الأعظم ، وغير قادرة على الوقوف بثبات امام منطق الدليل العلمي والبحث الفلسفي العميق .

يقول تشارلس داروين :

كل الاشياء الحية تشترك في الكثير: في تركيبها الكيميائي وفي تركيبها الخلوي وفي القوانين التي تحكم في نموها وفي تكاثرها

---

١ – اصل الانواع – المقدمة – ٦٠ .

وفي تأثرها بالمؤثرات المضادة . ونحن نرى ذلك حتى في أمثلة غاية في التفاهة ... .

ولذلك فلا بد لي أن استنتج من المقارنة والتحليل بالمثل انه من المحتمل ان تكون كل الكائنات العضوية التي عاشت فوق هذه الارض قد انحدرت على شكل واحد أصلي بدائي، نفخ اللـه فيه الحياة لاول مرة »[1] .

ولهذا كانت نتائج بحثنا السالف الذكر متجهة في خلاصتها الى : أن أزلية المادة « افتراض » لم يستطع القائلون به أن يبرهنوا عليه ؛ بل اعترف بعضهم بكونه « افتراضاً » بصريح العبارة[2] ، وأن ذاتية الحركة « افتراض » آخر لا سند له ولا دليل ، وان الخلية الحية الاولى كانت بحاجة الى قوة عليا تهبها الحركة وتطلق فيها شرارة الحياة .



ونعود الآن ، وبعد الفراغ من بحث تلك المرحلة ، الى المرحلة التالية من مراحل نشأة تلك الخلية ، وهي المرحلة التي أطلق عليها بعض الكتاب الماديين اسم « المرحلة الثانية من ولادة الحياة » ، حيث تم ارساء ما دعاه انجلز بـ « قاعدة

---

١ – اصل الانواع ٧٧١ .
٢ – نقد الفكر الديني : ٢٨ – ٢٩ .

تكوين شكل العالم العضوي »[1] ، وبدأت عملية التكاثر في الاحياء تسير في خطها المقرر وقانونها المرسوم .

وهنا ، وفي هذه المرحلة التالية ايضاً ، ظهرت بين المفكرين عدة آراء مختلفة ووجهات نظر متضاربة ، وعلا الضجيج على كل صعيد .

وكانت نقطة الخلاف الرئيسية ان هذه الاحياء المعاصرة – حيوانية ونباتية – هل هي تكاثر تطوري بحت ناشيء من تلك الخلية الاولى المفرقة في القدم ، أم انه خلق بعد خلق؟.

وبرز بين اولئك المعنيين بهذه المسألة عالم بيولوجي اسمه تشارلس روبرت داروين ١٨٠٩–١٨٨٢ م أولى هذا الموضوع كل بحثه ووقته وجهده ، وخرج على الناس بما يسمّى اليوم « نظرية التطور »[2] ، فكان لنظريته هذه من الاصداء والهزات والشروح والتعليقات ما نجد آثاره ماثلة الى هذه الساعة .

وسارع « المستغلون » بكل خفة ورشاقة الى استغلال هذه النظرية في التضبيب على الفكر الديني القائم على الايمان بالخالق الاول .

---

١ – النظرية المادية في المعرفة : ١٤٥ .

٢ – وقد رجعنا الى ابرز آثاره في هذا الموضوع وهو كتاب « اصل الانواع » الذي ترجمه الى العربية اسماعيل مظهر ومحمد يوسف حسن.

ثم سارع « المتدينون » بحكم طبيعة رد الفعل الى رفض هذه النظرية والى تكفير كل القائلين بها والمؤيدين لها من قريب او بعيد .

وفي خضم هذا الصراع الحاد بين «المستغلين » و«المنكرين» اصبحت نظرية داروين في الفهم السطحي العام دليلاً على انكار الله جلّ وعلا وبرهاناً على ازليـة المادة وكونها الخالق الذي لا خالق غيره .

ولكن الواقع الموضوعي على خلاف ذلك تمامـاً ؛ وبعيد عن هذه المزاعم كل البعد .

ان داروين لم يهدف من نظريته في أصل الانواع والتطور الى نفي الموجد الأول للحياة والاحياء كما ارجف المرجفون وتخيل المتخيلون ، بل لقد نفى نفياً قاطعاً أن تكون « أية أسباب وجيهة تجعل من الأفكار المتضمنة في هذا الكتاب [أي كتاب اصل الانواع] ما يصدم الشعور الديني لاي انسان »[١] .

وهذا ما اعترف به الكاتب المادي الدكتور جورج حنا اذ قال : « ان داروين لم يتطرق الى السؤال : من أين نشأت الحياة او كيف نشأت ..ان النظرية الداروينية لا تنفي وجود

---

١ ـ أصل الانواع :٧٦٧ .

الخالق كما انها لا تتعرض لإثبات وجوده »[1] .

وعلى الرغم من صراحة داروين بعدم اصطدام نظريته بالايمان بالله واعتراف جورج حنا بهذه الحقيقة ؛ فان هذا (الجورج) يدعي في مكان آخر من كتابه وبكل قطع وجرأة واطمئنان : ان النظرية الداروينية « رأى فيها اللاهوتيون نذير خطر على تعاليمهم الميتافيزيــة اليقينية »[2] ، ولكنه لم يوضح هذا الخطر المزعوم ولم يحددلنا ذلك «النذير» المشؤوم.

وهو إنما يعني – في ارجح الظن – تلك الحواشي التي أضافها الماديون الى النظرية بحجة التوضيح والتفسير ، فزعموا فيها ان النظرية تعتمد في أساسها على أن الخلية الحية الأولى قد انطلقت بفضل « التولد الذاتي » الذي لا يمت الى الخلق بأي نسب او سبب .

★ ★ ★

وبالنظر الى أهميـــة مسألة « التولد الذاتي » وارتباطها الوثيق بجذر البحث ؛ فمن الموضوعية بمكان – وما دمنـا في المقدمة – ان نتريث هنا قليلاً لندرس موقف العلم الحديث والفكر العلمي المعاصر من هذه المسألة ، ولنكوّن الرأي القاطع فيها قبل الدخول في صلب الموضوع ، ليكون الارضية

---

١ ـ قصة الانسان : ٩ .

٢ ـ المصدر نفسه : ١٩٨ ـ ١٩٩ .

الصلبة التي نرسي عليهـا دعائم دراستنا للتطور ونظرياتـه المطروحة في الساحة .

ان امكان نشأة الحياة — وبصور مختلفة — من مواد غير حية ، موضوع كثر فيه الأخـــذ والرد والنقاش منذ عهد الاغريق ، وعلى وجه التحديد من ذلك اليوم الذي خـــدع ارسطوفيه بمنظر الديدان في الجبن فذهب الى القول بـ « التولد الذاتي » [1] أي « الأصل الجمادي للاحياء » وانطلاقة الجماد من الجماد .

وانطلت هذه الخديعة على عدد من الناس جيلاً بعد جيل ، حتى لفّت في ضبابها فيلسوفاً كبيراً كابن سينا ساقه النظر السطحي الى القول بامكان تولد حيات من الشعر ، وعقارب من التبن ، وفئران من المدر ، وضفادع من المطر ، وفي ذلك يقـول :

« فإنْ ظُنّ ان في ذلك يمتنع ؛ إلا في مكان محدود وقوة محدودة كالرحم والنطفة ، فان الكلام بعد المسامحة قائم في المزاج الذي يقع للرحم ، حتى يتكوّن فيه ما يتكوّن ؛ والذي يقع للنطفة حتى يتكون منها ما يتكون ....والرحم

---

١ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية : ١٥٧ .

مثلاً ليس يفعل شيئاً إلا ضبطاً وجمعاً وتأدية ؛ وأما الاصل فهو الامتزاج ، والامتزاج عن الاجتماع . وهــذا الاجتماع كما يمكن ان يقع عن قوى جامعة في الرحم وغيره ، فلا يبعد ان يقع بأسباب اخرى ... وأما القوى الفعالة فيهبها واهب القوى » [1] .

ثم جاء بعد ذلك من حاول تأكيد هذه الفكرة واثباتها علمياً وتجريبياً ، فقد عمل العالم الهولندي ليفنهوك المولود سنة ١٦٣٢ م بعض العدسات الزجاجية الدقيقة ، واستطاع ان يرى بواسطتها ما لا تراه العيون المجردة من دقائق الكائنات الحية ، فطرح على الملأ العلمي فكرة التولد الذاتي من جديد ، مستدلاً عليهـــا بجزئياته التي لم يكن للبشرية عهد بها قبل ذلك اليوم .

وتلقّف علمـــاء الطبيعة مشاهدات ليفنهوك باهتمام بالغ ، وبدأوا يناقشون دلالتها ويستشفون ما وراءها بكل جد ودقة ، ورأى بعض هؤلاء في دقائق ليفنهوك الحيوانية حكاية للصور البدائية التي ظهرت بها الحيـــاة على الارض منطلقة من الجمـــاد .

ثم تتابعت على أثر ذلك عدة آراء لتعليل أصل الحياة .

---

١ ــ الشفاء / الطبيعيات / الفن الخامس ٧٦ ـ ٧٧ .

ولم تطل فرحة علماء الطبيعة بافكارهم هذه ، فسرعان ما ظهر بطلانها وفسادها على يد العالم الايطالي ريدي «١٦٢٦ — ١٦٧٩ م » حينما اقام البرهان بطريقة تجريبية على زيف فكرة التولد الذاتي ، وذلك بوضع اللحم في زجاجة مغطاة بشبكة معدنية دقيقة الثقوب لا تسمح بمرور ما يضعه الذباب من بيض ، وقد تبين له ان الذباب عندما يقع على الزجاجة ويزحف علىّ الشبكة المعدنية لا يستطيع ان يضع بيضه على اللحم نفسه ، وإنما يضعه على الشبكة الفاصلة ، وبذلك تعفّن اللحم ولكنه لم ينتج دوداً «يرقات» . وكان الكشف العلمي المستنبط من هذه العملية ان اليرقات انما تتولد في الحقيقة من بيض الذباب وليس من اللحم نفسه .

وفي سنة ١٧١٠ م أضيفت الى تجربة ريدي ملاحظات جديدة للويس كوبلوت تعتمد على التسخين جاءت مؤيدة لنظرية ريدي ونتائج بحثه .

وفي عام ١٧٤٩ م تصدى العالم الانكليزي نيدهام لملاحظات كوبلوت بالتفنيد ، مدعياً ان تجارب عديدة قائمة على التسخين قد اثبتت ظهور الحياة في كل الاوعية حتى المسخن منها ، واتخذ من هذه التجارب دليلا على ثبوت نظرية التولد الذاتي .

وفي تلك الفترة من الزمن قام العالم الايطالي سبالانزاني

باجراء عدة تجارب كالتي قام بها من قبل كل من كوبلوت ونيدهام . وكانت النتائج التي حصل عليهـــا مؤيدة لرأي كوبلوت ومغايرة لرأي نيدهام ، فقد ثبت لديه تجريبياً ان الحرارة اذا امتدت لمدة كافية بوعاء محكم الغلق لا يتسرب اليه غبار او هواء فقد انعدمت فيه الحياة والاحياء .

وكان رد نيدهام على تجارب سبالانزاني ان استمرار التسخين لمدة طويلة يعمل على اتلاف القوة الحيوية الانتقالية للمادة العضوية ، تلك القوة التي لا يمكن الاستغناء عنها لاتمام عملية التولد الذاتي للحياة .

فلم يكن من سبالانزاني إلا ان قام باثبات فساد استنتاج نيدهام بطريقة تجريبية لا تدع للشك سبيلاً، وذلك بان عرض للهواء محتويات الاوعية المغلقة التي تعرضت للتسخين الشديد فاذا بها لم تلبث أن استردت قدرتها على انتاج الاحياء .

وفي أوائل القرن التاسع عشر شارك هيغل في هذه التجارب وطلع على الناس بافكاره في التولد الذاتي محدداً لها في سبع مسائل :

اولاً – الحياة العضوية محصورة في المادة الحية الاولى أي البروتوبلازم وهي تركيب كيماوي غرواني ، الزلال والماء اكبر العناصر التي تتركب منها .

ثانيـاً – حركات هذه المادة الحية التي نطلق عليها اسم

الحياة العضوية طبيعية كيميائيـة صرفة لا أثر لقوة اخرى فيهـا ! .

ثالثاً – اذا فاقت درجة الحرارة هذين الحدين فقد تبقى الصور العضوية حافظة لحياتها الطبيعية ، واذ ذاك تسمى حياتها الحياة الكامنة او الحياة بالقوة ، ولكنها لا تستطيع البقاء على ذلك زماناً طويلاً .

رابعاً – اذا كانت الارض كبقية الاجرام الاخرى قـد انفصلت عن الشمس ... فان المادة الحية – البروتوبلازم – لا يمكن ان تكون قد لبثت كل هذه العصور محتفظة بصورتها فالحياة – إذن – ليست ازلية ابدية .

خامساً – المادة الزلالية التي تولدت منها الحياة ؛ لم تحدث في الارض إلا بعد ان نزلت حرارتها عن درجة الغليان .

سادساً – التراكيب الكيميائية التي تكونت منها المادة الزلالية التي حدثت فيها الحياة تدرجت في النشوء والتركيب بحسب الحـالة التي كانت الارض عليها حتى بلغت مرتبـة البروتوبلازم .

سابعـاً – « المونيرة » اول العضويات الحيـة تكويناً ، فكانت مختلطة الصورة والتركيب ، ومن ثم أخـذت في الارتقاء .

وهكذا طلع هيغل على الباحثين العلميين بـ « المونيره » وبكونها «أصل الحياة » الذي نشأت منه الكائنات الاولية الدنيا وتطورت .

بيد أن بعثة الكشف العلمي الاوقيانوسي المسماة ببعثة « تشالنجر » التي جابت البحار في رحلة علمية طويلة الأمد قطعت خلالها ٦٩,٠٠٠ ميل في المدة (١٨٧٢ - ١٨٧٦ م) أثبتت دحض هذا الرأي ، وأكدت ان هذا الكائن الخيالي الذي عثر عليه هيغل لم يكن إلا مادة خميرية لا تنتمي بحال الى البروتوبلازمية أو المادة الحية .

وعندما كثر الجدل وتضاربت الآراء حول نظرية التولد الذاتي قررت الاكاديمية الفرنسية للعلوم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن تضع حداً لهذه الافكار المتضاربة ، ورصدت جائزة قيّمة لمن يتمكن من البتّ في هذه المسألة بأدلة مقنعة .

وشاء الحظ أن تكون هذه الجائزة الثمينة من نصيب الباحث العلمي المعروف لويس باستير .

كان باستير كثير العجب والحيرة -- وهو يراقب تحت مجهر تلك الاجسام الدقيقة التي تخمر اللبن -من مصدر ونوعية هذه الاجسام ، وكان يسأل نفسه كثيراً : أليس ما يشاهده

شكلاً من اشكال الحياة ؟ فاذا كان الأمر كذلك فكيف نشأت هذه الحياة .

لقد كان باستير يميل الى الاعتقاد بخطأ فكرة التولد الذاتي ، اذ كان يرى ان كل كائن حي لا بد ان يأتي من أشباهه ويرث منها صفاتها ويورّثها بالتالي الى اجياله التالية ، ولا يُستثنى من هـذه القاعدة نبات او حيوان بل حتى الخمائر والميكروبات . وكان على يقين من أن السبب في تخمر أي سائل أو تعفنه انما هو وصول هذه الاحياء اليه من الخارج فاذا ما استوطنت به أخذت تتوالد وتتكاثر اجيالا تلو اجيال ، محدثة به التخمر والتعفن .

وقام باستير باجراء العـديد من التجارب والبحوث التي تناول فيها بالتفصيل نظرية التولد الذاتي ، حتى تمكن من القضاء عليها نهائياً في بحث له بعنوان « الاجسام المنتظمة في الجو ، اختبار لمذهب التولد الذاتي » نشرته مجلة حوليات العلوم الطبيعية في عام ١٨٦١ م ، وأثار اعجاب العلماء بمـا تضمنه من منطق ووضوح وبساطة كبيرة في تناول هـذه المشكلة . ولا مراء في أن بساطة تجاربه وتيسُّر اعادتها مع الحصول على نفس النتائج كانت من العوامـل الاساسية التي جعلت من هذه التجارب نظرية علمية مقنعة للآخرين .

لقد قسّم باستير بحثه الى اربعة فصول ، وكتبها باسلوب

سهل ومبسط الى حد بعيد ليشرك القارىء معه في التفكير والتعمق في خطوات المسألة .

وقد تناول في الفصل الاول تاريخ نظرية التولد الذاتي وتطورها على مرّ العصور ، ثم ربط بينهما وبين نظرية التخمرات ودور الميكروبات فيها ، وخرج في ختام الفصل بتأكيد أن الميكروبات لا يمكن باي حال من الاحوال أن تنشأ من العدم بل لا بد من ان تكون بذورها موجودة في الهواء الجوي ، ثم قال : والابحاث التي سوف ادوّنها هنا ما هي إلا مجرد آراء جديدة أراها ضرورية كنتيجة لدراساتي في التخمر .

أما الفصل الثاني فقد بدأه بمناقشة علمية لكل الآراء التي ابتدعها مؤيدو نظرية التولد الذاتي موضحاً براهين تفنيدها وبطلانها باسلوب منطقي ومقنع جداً ، ثم أعلن ان تسخين المنقوعات يختزل عدد الكائنات الحية الدقيقة الموجودة فيها بمقارنتها بغيرها المتعرض للهواء الجوي بدون تسخين . ووصف في هذا الفصل مجموعة من المشاكل التي اصطدم بها وهو يحاول إثبات ان الجراثيم مصدرها الهواء .

وقد روى بعض تجاربه وأعماله العلمية وتحدّث عن مرئياته تحت عدساته المكبّرة ، تلك التجارب والمرئيات التي

دلت على أن الهواء هو مصدر الميكروبات – وأسماها الاجسام المنتظمة – ، وان هـذه الاجسام المنتظمة هي المسؤولة عن تلوُّث المنقوعات حيث تصل اليهـا من الجو وتتوالد داخلها مسببة التخمر والتعفن ، أي انهـا لا تتولد ذاتياً داخل هذه المنقوعات .

وفي الفصل الثالث تحدث باستير عن تجارب العالم شفان ، حيث قام باعادة تلك التجـارب والقيام بعمليات اضافية اخرى مرتبطة بتلك التجارب ، ثم أعلن نتائج ذلك كله بقوله : « يمكنني أن أقول بثقة كبيرة انّ ماء السكر والخميرة المسخّن الى درجة الغليان لمدة ٢ – ٣ دقائق اذا وضع بملامسة هواء سبق تسخينه فانه لا يتعرض لاي تغير حتى بعد ١٨ شهراً على درجة حرارة ٢٥ – ٣٠ م . وفي نفس الوقت اذا ملئت القارورة بالهواء العادي الذي لم يسبق تسخينه فانهـا تتعرض الى التغـير في ظرف يوم او اكثر وتصبح مكتظة بالبكتيريـا » .

وفي الفصل الرابع والاخير من هـذا البحث شرح باستير طريقة جديدة مبسطة لإثبات ان جميع الاجسام المنتظمة التي تظهر في المنقوعات التي سبق تسخينها تتولد من اجسام توجد معلقة في الهواء الجوي ، ثم أردف ذلك بعرض لنتائج عدة

تجارب في هذا الموضوع [1] .

وهكذا انهارت اسطورة التولد الذاتي بما لا مجال فيه لأي تردد أو شك أو احتمال ،وأصبحت الديدان والميكروبات وعمليات التخمير أدلة قاطعة على أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة ، وان النطفة هي القانون العام الشامل لعالم الأحياء الواسع العظيم .

وبانهيار اسطورة التولد الذاتي انهارت «صروح كرتونية» كان يظن اصحابها انها أقوى من « الكونكريت المسلّح »، وبدأ التخبط والتشبث بالالفاظ غير المفهومة وغير المحددة ينعكس على كتابات هؤلاء بشكل مثير للانتباه وملفت للنظر .

ولم يجدوا بداً – آخر الامر – من طرح « شيء ما » على الملأ العلمي ، فكان ذلك : فكرة امكانية «التولد العفوي» بدلاً عن الذاتي ، بزعم ان تجارب باستير لا تنفي هذه

---

١ ـ اعتمدنا في الحديث عن التولد الذاتي واعمال باستير على كتاب اصل الانواع ـ المقدمة ـ (ط. بيروت ١٩٧١ م) وكتاب الشمس والحياة للدكتور محمود خيري علي (ط. القاهرة ١٩٦٣ م) وكتاب صور من الحياة للدكتور مصطفى عبد العزيز (ط. القاهرة ١٩٦٣ م) وكتاب قصة الحياة ونشأتها على الارض للدكتور انور عبد العليم (ط. القاهرة ١٩٦٤ م) وكتاب لويس باستير مؤسس علم الميكروبات للدكتور محمد صابر (ط. القاهرة ١٩٧١م)

« العفوية » [1] ابداً .

ولم نعلم حتى الآن معنى هذه «العفوية» ! .

أهي « الصدفة » ؟! أم هي التخيل ؟! أم هي «الاحلام» التي يراها النائم وبخاصة على أثر وجبة شهية غنية بالمواد الدهنية والنشوية ؟!.

ولقد نسي هؤلاء ان العلم يبحث عن « قانون » .

فهل التوالد « العفوي » قانون علمي ؟ .وإذا كان قانوناً علمياً فلماذا عبّروا عنه بـ « الامكان » ؛ في حين ان الامكان احتمال – مجرد احتمال – في الحساب لا اكثر ولا أقل .

وخلاصة القول : ان تجارب باستير قد كشفت عن انتصار عظيم للفكر الميتافيزيقي على ضوء العلم والاختبار لم يدر على بال . وان ذلك ان دل على شيء فانما يدل على سلامة الفكر الديني وصحته بما يكشف العلم الحديث من اسراره وغوامضه ومجهولاته .

ولكنّ الشيء المؤلم ان هذه الانتصارات الكبيرة للميتافيزيقيا قد تعمّد اغفالها عدد من الكتاب عن قصد واصرار ، حتى بلغ الامر بأحدهم حدّ القول : بان

---

١ – النظرية المادية في المعرفة : ١٤٢ .

اتساع أفاق العلوم « كشف في أكثر من موقع ركاكة الميتافيزيقيا »[1] .

فهل كانت نتائج باستير هي الكاشفة عن هذه الركاكة؟!.

وهل كانت نظرية السكون عند نيوتن هي المعنية ؟!.

أم ان هـذا « الكشف » الذي يعنيه الكاتب من قبيل الكشف الصوفي الذى يحسه المتصوف ولا يستطيع البرهان عليه ؟! .

★ ★ ★

وعندما يتضح بمثل هذا الجلاء والاطمئنان بطلان خدعة التولد الذاتي يتضح ايضاً ان « الحياة » ما زالت حتى اليوم لغزاً مطلسماً لم يستطع العلم بلوغ غوره وايضاح أمره، ولم يستطع بكل وسائله التجريبية الضخمة ان يقف على سره العميق المذهل .

وهذه هي الحقيقة التي لا مناص من الأخذ بها وان تمرّد عليها المعاندون وغالط فيها المغالطون بل هي الحقيقة العلمية التي أكدها وأعلن الإيمان بها عدد من العلماء المشهورين :

---

١ ـ نظرية الحركة الجوهرية : ١٢٥ .

يقول كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك :

« ان المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ؛ ولا أي اتفاق في الظروف الكيميائية والطبيعية قد تخلقه المصادفة ، يمكنها أن تأتي بالحياة الى الوجود .

ويقول مؤكداً :

« وبصرف النظر عن مسألة أصل الحياة التي هي بالطبع من الالغاز العلمية ، قد افترض ان هنة ضئيلة من الحياة ، بلغت من الضآلة انها لا ترى او تلمح بالميكروسكوب ، قد أضافت اليها ذرات ... فانقسمت وكررت الأجزاء المنفصلة هذه الدورة ، وبذا اتخذت اشكال الحياة . ولكن لم يزعم أحد انها اتخذت الحياة نفسها » [١] .

ويقول الكاتب الماركسي جون لويس :

« الحيوان ليس مجرد مجموعة من العناصر الكيميائية التي يتفاعل بعضها مع البعض الآخر كما يجرى في بوتقة

---

١ ـ العلم يدعو للايمان ٩٧ .

الاختبار مثلا ، بل هو كائن حي يتمتع بخصائص لا تتمتع بها المـادة [1] .

ويقول ايضاً :

« ان من الخطأ الفاحش النظر الى ظواهر الحياة الانسانية على انها يمكن أن تفسّر كلها بلغة البيولوجيا ... كما لا يمكن أن نفسر الانسان في حدود الكيمياء فقط أو الفيزياء فقط او الفيزيولوجيا فقط » [2] .

ويقول الدكتور مصطفى عبد العزيز :

« ان مادة الحياة ليست من البساطة بمكان . فليس تخليق المادة الحية يعني تجميع وتكثيف مكوّنات البروتوبلازم بل ان هناك عوامل احيائية مساعدة تضمن للحياة نشاطها وتسلسلها . والانزيمات ليست وحدها هي مفاتيح اسرار الحياة وكنهها » [3] .



ومهما يكن من امر :

فان التطور بكل جوانبه السلبية والايجابية ما زال هو

١ ـ الانسان والارتقاء ٥ .
٢ ـ المصدر نفسه ٧٥ .
٣ ـ صور من الحياة .

الشغل الشاغل للعلماء على اكثر من صعيد ، وما زالت فئات معينة من الكتاب تظنه سلاحاً ماضياً في حربها على الفكر الديني وما يتعلق به ويمت اليه .

وبالنظر إلى كل ذلك ؛ والى ارتباط هـذا الجانب من البحث ببحثنا السابق عن المادة ، ووضعاً للنقاط على الحروف – على حد التعبير المألوف – رأيت لزاماً عليّ أن أدلي بدلوي في هذا الموضوع فأضع هذه الصفحات بين ايدي القراء المعنيين ليكونوا على علم كامل بحقيقة المسألة وبالموقف الديني السليم منها كما تدل عليه الاصول الأساسية المعتمدة .

وسيعنى القسم الاول من البحث – وهو الذي نقـدم له بهذه السطور – بعرض فكرة التطور ، والحديث عن القائلين الاول بها لمعرفة مقام داروين بين هؤلاء القائلين ومدى سبقه او تأخره في ذلك ، ثم استعراض مدى قيمة هـذه النظرية – صحة وبطلاناً – من الناحية العلمية الصرفة لنكوّن الرأي الصائب في رفضها أو قبولها على ضوء ذلك كله .

أما القسم الثاني الذي نأمل أن نوفق الى اكمال كتابته في فترة قريبة ان شاء الله فسيعنى بتحديد موقف الفكر الديني المعتمد على القرآن الكريم والسنة الصحيحة من

الخطوط الكبرى للتطور والارتقاء ؛ ثم من القائلين بها والذاهبين اليها من المسلمين ، لئلا نسارع الى اصدار احكام الكفر والارتداد قبل التبين والتثبت والمعرفة الكاملة .

وسيكون ملاحظاً – ولا شك – في هذه الدراسة : اكثاري – الذي قد يعجب منه بعض القراء – من سرد اقوال الكتاب والفلاسفة والباحثين . وعذري في ذلك اني احاول اشراك القارىء الواعي معي في اصدار الحكم الفاصل والرأي القاطع في استخلاص النتائج وكشف الستار عن الحقيقة المنشودة .

كذلك قد اكون مطيلاً ايضاً في سرد اقوال داروين فيما شرح به افكاره ووجهة نظره . ودافعي الى ذلك علمي بأن اكثر أصدقاء هذه النظرية واعدائها لم يعرضوا لها بشكل كامل ووافٍ في دراساتهم وبحوثهم ، فاقتصر الاصدقاء على جانب كبير منها ، كما اقتصر الاعداء على جانب آخر منها . أما أنا فهدفي عرض الجانبين بشكل موضوعي صادق ، ليكون البحث بعيداً كل البعد عن ميادين العواطف والتهريج والمزايدات .

وكل رجائي وأملي أن يحالفني التوفيق في هذه المسيرة الفكرية المجهدة ، ليتم تحديد موقفنا – كمسلمين – من هذه

النظرية بكل صراحة وتجرد ، ولنعرف مواقع خطانا على طريق الفكر المعاصر بكل ثقة واطمئنان ، والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

العراق ـ بغداد ـ الكاظمية :

محمد حسن آل ياسين



١

كانت القاعدة الفكرية الرئيسية التي اختارهاداروين لتشييد دعائم نظريته التطورية عليها تقوم على الاقرار بأن الكائن الحي بكل أنواعه ــ ومن جملتها الانسان ــ إنما ينحدر من أصل واحد ، وان ذلك الأصل قد انقسم وتعدد وتنوَّع طبقاً لما سماه « الانتخاب الطبيعي » ، فأصبح يشكل هذه المجموعة الضخمة من انواع الاحياء وفصائلها المختلفة ، وان ذلك التطور الكامن في داخل الكائن والقائم على عدد من العوامل والنواميس الثابتة المعينة هو الذي انتهى بهذه المجموعة المتنوعة عبر سلسلة كبرى من الحلقات الوسطى الى سيدها الاكبر «الانسان» .

وعندما نقرأ بحوث داروين وكتاباته نجد انه قد كرر وأكد أهمية هذا « الاصل الواحد » لكل الكائنات

العضوية ، باعتباره منطلق النظرية وأرضيتها الصلبة .

فهو يقول مثلاً :

« هناك أدلة كثيرة من الأجنّـة والتجانس والأعضاء الأثرية ، ممـا يدل على أن الأفراد جميعاً قد تسلسلت من أصل واحد »[1] .

ويقول :

« ان كل الكائنات العضوية التي عاشت على سطح الأرض قد تسلسلت من أصل بدائي واحد »[2] .

ويقول :

« في كل الكائنات العضوية ـ ربما عدا بعض الدنيا منها ـ فان التكاثر الجنسي فيها متشابه ، وفيها جميعها كما هي الحال الآن فان الخلية الجرثومية واحدة . وعلى ذلك فان كل الكائنات العضوية لها أصل مشترك »[3] .

ويقول :

« ان الانواع والاجناس والفصائل التي لا تعد من

١ و ٢ ـ أصل الأنواع ٧٧٢ .

٣ ـ أصل الأنواع ٧٧١ .

الكائنات العضوية التي تعمر هذه الدنيا قـد انحدرت جميعاً كلٌّ في حـدود طائفتـه او مجموعته ، من جـّدٍ مشترك ، وأنها جميعها قـد تحورت خلال تاريخ ذلك الانحـدار »[1].

ويقول ايضاً :

« ان كل الانواع الحية ، لا بد من أن يكون قد مضى عليها زمان كانت فيه متصلة بالاصول الأولى التي نشأ عنها كل جنس بذاته ، بصور من التحول ... وان هذه الاصول الاولى – وقد انقرضت في هذا العصر – كانت في دور من ادوار نشوئها ، متصلة بصورة أبعد منها قدماً . وهكذا تعود دواليك كلما رجعت الى الازمان السالفة وأمعنت في البحث ، الى أصل اول »[2].

★ ★ ★

وبعد ان فرغ داروين من تقرير هـذا « الأصل الواحـد الأول » وتاكيده أشدَّ التاكيد ، شرع بوضع

---

١ – أصل الأنواع : ٧٤٥ .

٢ – أصل الأنواع : ٥٥١ .

القواعد المتفرعة عن هذه الدعامة الرئيسية ، على ضوء مشاهداته وبحوثه واختباراته وتجاربه ، وكانت زبدة المخاض عن ذلك كله ولادة تلك النظرية «التطورية» التي انتسب اليها وانتسبت اليه على ألسنة الكتاب والمعنيين .

وتذهب هذه النظرية ـ في خلاصتها ـ الى ان التطور الذي أدى الى نشوء الانواع المختلفة من ذلك الاصل الاول الواحد ، والى ارتقائها المتنوع والمتعدد انما هو نتيجة مباشرة لوجود خمسة عوامل (او نواميس) طبيعية متسلسلة يعتمد كل عامل متأخر منها على سابقه ، ويبعث وجودها في الكائن الحي على سيره في طريق الارتقاء جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر .

وهذه هي العوامل الخمسة ملخصة من كتاب « أصل الأنواع » :

العامل الاول ـ الوراثة :

ويعني داروين بهذا العامل ان الشبه يأتي بمشابهه ، فالقطط لا تلد كلاباً بل قططاً ، وان صغار كل نوع

تشابه آباءها ، في النبات وفي الحيوان . وتلك حقيقة لا مجال فيها لنقاش أو تردد .

العامل الثاني ـ التحول :

ومعناه ان افراد كل نوع تتشابه ولا تتماثل ، أي لا تكون مطابقة لاصولها ،فهي تشابه آباءها ولكن لا تماثلهم . ففي بطن من القطط مثلا لا تقع العين على اثنين متماثلين تماماً ، واذا تشابهت جميعها حتى في اللون فانها تختلف في الظلال التي يمتد فيها اللون .

وعندما يبحث داروين موضوع التحول والاستعداد الطبيعى في الكائن الحي لتقبله يقول :

« لا مندوحة لنا من القول بأن حالات الحياة المتغايرة من اكبر مقومات الاستعداد للتحوُّل ، سواءاً كان ذلك من حيث تاثيرها في نظام الكائنات الطبيعي تاثيراً مباشراً ، او من طريق تأثيرها في النظام التناسلي تاثيراً غير مباشر .... والاستعداد للتحول محدود بكثير من السنن المعروفة أكبرها شاناً سنّة تبادل الصلات

في النماء ، وقد يُعزى بعضها الى تأثير حالات الحياة المحدودة تأثيراً يتعذر تعيين مقداره »[1] .

العامل الثالث ـ التوالد :

ويعني به داروين ان ما يولد من النبات والحيوان اكثر مما يقدَّر له البقاء ، فالطبيعة تسرف في الايجاد كما تسرف في الافناء ، ويقول في شرح ذلك :

« كل كائن في الوجود ، ان أنتج في حياته عدداً وافراً من البيض أو البذور ، فلا بد من أن ينتابه الهلاك في بعض ادوار حياته ، او في غضون بعض الفصول او السنين اتفاقاً ، وإلا فان عدد افراده يتكاثر بنسبة هندسية لا يتصورها الوهم » . ولهذا يرى انه ينبغي « ألا نغفل عن أن كل كائن حي يساق للزيادة الى حد بعيد .... وان الفناء ينزل بكبار الافراد وصغارها في غضون كل جيل »[2] .

---

١ ــ أصل الانواع ٥؛ ٧ .

٢ ــ المصدر نفسه ١٦٥ .

العامل الرابع ـ التناحر على البقاء :

أي ان كل حيوان أو نبات يبرز في الوجود ينبغي له أن يسعى الى الرزق وأن يجاهد غيره على ضرورات الحياة . ويقول داروين موضحاً ذلك :

« ان سكان الارض على تعاقب الادوار الزمانية في جميع تاريخها قد هزمت أسلافها في التسابق على البقاء ، وأنها لذلك كانت أرقى منزلة في سلم الطبيعة ، كما أصبح تركيبها العضوي بوجه عام اكثر تخصصاً »[1] .

العامل الخامس ـ البقاء للاصلح او الانتخاب الطبيعي:

ويعني بذلك ان الافراد التي تتزود من بنائها بقوة أوفى أو حيلة أكبر او تكون اكثر قدرة على مقاومة الاخطار والعوامل الطبيعية ، تكون أكثر قابلية للبقاء واعقاب نسل فيه صفاتها التي مكنت لها الحياة والبقاء . ويقول داروين في ايضاح رأيه في هذا العامل :

---

١ ـ اصل الانواع ٦٣٠ .

« ان الكائنات العضوية كافة ، مهما كانت صفاتها وطبائعها ، مسوقـة الى التكاثر بنسبة هنـدسية ذات نظـام خاص ، وان كلا منها لا بـد من أن يتناحر للبقاء مع غيره ، وأن ينزل به الهلاك في بعض ادوار حياتـه الطبيعية ، او خلال الفصول أو الاجيال او الفترات الزمنية المتتالية .... وانه لا يبقى حياً منها او يتضاعف عدده الا الانواع التي تهيء لها قوتها او كمال بنيتها الطبيعي سبيل الاحتفاظ بكيانها »[1] .

ويقول ايضاً في شرح هذا العامل :

« اننا اذ ننظر في الطبيعة ونجـــد ان التحولات المفيدة للعضويات قـد تحدث ويتكرر حدوثهـا فيها ، نتحقق دائماً ان الافراد التي تخصها الطبيعة بتلك التحولات تصبح قادرة دون غيرهـــا على الاحتفاظ بكيانها في التناحر على البقاء ، وتعقب من الانسال ما ينفرد بنفس تلك الفوائد التي خصتها بها الطبيعة ، خضوعاً لسنّة الوراثـة .

---

١ — أصل الانواع : ٢١١— ٢١٢.

وتلك السنَّة ـ سنَّة الاحتفاظ بالتحولات المفيدة للعضويات او بقاء الاصلح منها ـ صرفتُ عليها اصطلاح (الانتخاب الطبيعي) وهي سنَّة طبيعية تسوق الى تهذيب الكائنات الحية من طريق اتصالها بالمؤثرات العضوية وغير العضوية المحيطة بها في الحياة »[1] ، أي ان « نعزو حدوث هذه الغرائز والحالات الى سنَّة عامة ... تمضي بالاقوياء الى التكاثر ، وبالمستضعفين الى الزوال والانقراض »[2] .



---

١ ــ أصل الانواع : ٢٨١-٢٨٢ .

٢ ــ المصدر نفسه ٥٠١ .

- ٢ -

ومن حق الامانة العلمية ـ وما زلنا في اول هذا البحث – أن نقف قليلاً لنطرح السؤال التالي :

هل كانت نظرية داروين هذه كشفاً علمياً مبتكراً لم يسبق اليه سابق ، ورأياً جديداً لم يدر بخلد أحـــد من العلماء والفلاسفة المتقدمين ، أم ان لها من السوابق والجذور مـــا يذهب ببريقها ولمعانها ، ويطمس معالم جدّتها المشعة وابتكارها الأخّاذ ؟ .

وقبل الاجابة على السؤال أود أن أشير الى أن الكتّاب الماديين ومن سار على منهجهم قد أجمعوا على أن داروين هو مبتكر هذه النظرية وصاحب (براءة اختراعها) والأول الذي لا أول له في هذا الميدان .

وفي ذلك يقول ـ مثلاً ـ كاتب مادي معروف هو

جون لويس :

« ان داروين قد طرح فكرة مقنعة ، وهي ان عالم الحيوان لم يوجد نتيجة عملية خلق واحدة ، بل هو ثمرة تغيرات ارتقائية عملت على تحويل الأنواع التي ظهرت في عصور مبكرة ، الى الاشكال الاكثر تعقيداً والتي ظهرت في عصور متاخرة[1] » .

ويقول كاتب مادي آخر هو روجيه غارودي :

ان داروين قد انتهى به الأمر الى تقرير « ان كل المنتوجات العضوية للطبيعة .... بما فيها الناس ، هي نتيجة تطور طويل من عدد صغير من البذور »[2] .

ويقول كاتب آخر (يدعي انه مادي) هو الدكتور جورج حنا :

ان النظريـــة الداروينية اصبحت في نظر العلم حقيقة لا يُشكّ بصحتها[3] ، وان علماء القرن التاسع

---

١ ـ الانسان والارتقاء : ٧ ـ ٨ .
٢ ـ النظرية المادية في المعرفة : ١٤٧ .
٣ ـ قصة الانسان : ١١ .

عشر قد (تبنوا نظرية داروين البيولوجية)[1] .

وهكذا يتضح من هذه النصوص ومن كثير أمثالها أن هناك اتفاقاً يكاد يكون اجماعاً بين مؤيدي فكرة التطور والباحثين عنهـا وفيها على ان داروين هو صاحب النظرية وواضع قواعدها وباني صرحها الضخم الكبير .

وهذا كله ـ وارجو أن لا يفاجأ القارىء الكريم ـ مرفوض بكامله لأنه خلاف الواقع وغير صحيح أبداً .

واذن ، فلا بد لنا هنـا من وقفة نستقرىء فيها تاريخ الفكر ونقرأ خلالها بعض النصوص التراثية المتعلقة بهـذا الموضوع الخطير لينكشف الغطـاء عن الحقيقة فتتجلى واضحة لكل ذي عينين .

ولا بدَّ لنـا من الاشارة ـ من باب الموضوعية المجرَّدة ـ الى أن الفلاسفة الاغريق كانوا هم الملمّحين الأوائل لهذه الفكرة ، وان كان تلميحهم ذاك سطحياً وساذجاً الى حدٍّ بعيد . فلقـد ذهب الفيلسوف

---

١ ـ قصة الانسان : ١٩٨ .

انكسيمندريس المتوفى سنة ٥٤٧ قبل الميلاد الى ان الأحياء « كانت في ألاصل سمكاً مغطى بقشر شائك ،حتى اذا ما بلغ بعضها أشدّه نزح الى اليبس وعاش عليه ونفض عنه القشر. والانسان .. منحدر هو ايضاً من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع »[١].

وذهب فيلسوف آخر الى « أن الفلك لما دار على استقامةٍ ظهرت البهائم ، ثم دار على اعدل من ذلك فأظهر القرد وكاد يكون انساناً ولا شيء أشبه به منه ، ثم دار على غاية العدل فاظهر الانسان »[٢].

ثم جاء دور الفلاسفة المسلمين وصرفوا جهدهم نحو بحث هذه المسالة في ما عُنوا ببحثه من مسائل الفلسفة والعلوم ، وطلع بعضهم على الملأ العلمي بنظرية مفصلة وشاملة عن التطور والارتقاء من زاويتها الفكرية والفلسفية ، وأودع هؤلاء كتبهم خلاصات وافية لوجهة نظرهم في هذا الموضوع ، ولكنهم لم يرزقوا من يطبل لهم

---

١ – تاريخ الفلسفة اليونانية : ١٥ .

٢ – البدء والتاريخ : ٢ / ٧٦ .

ويزمر ، فبقيت أفكارهم حبيسة مؤلفاتهم ودراساتهم التي لا يقف عليها غير المعنيين والمختصين .

وأورد في ما يلي — على سبيل التمثيل — ثلاثة نماذج مستلّة من قرون زمنية مختلفة ، لتكون برهاناً ناصعاً على سبق هؤلاء الفلاسفة المسلمين لغيرهم من البيولوجيين المتأخرين في هذا الميدان محتفظاً لنفسي بوجهة نظري الخاصة بالموضوع الى نهاية البحث باذن الله .

يقول اخوان الصفاء [القرن الرابع الهجري] في رسائلهم المعروفة باسمهم :

« ان الباري — جل ثناؤه — لما ابدع الموجودات واخترع الكائنات ، جعل أصلها كلها من هيولي واحدة ، وخالف بينها بالصور المختلفة ، وجعلها اجناساً وانواعاً مختلفة متفننة متباينة ... وربط اوائلها واواخرها بما قبلها رباطاً واحداً على ترتيب ونظام لما فيه من اتقان الحكمة واحكام الصنعة ، لتكون الموجودات كلها عالماً واحداً منتظماً نظاماً واحداً وترتيباً واحداً ، لتدل على صانع أحَد ... وهي أربعة اجناس : المعادن والنبات

والحيوان والانسان ، وذلك ان كل جنس منها تحته انواع كثيرة ، فمنها ما هو في أدون المراتب ، ومنها ما هو في أشرفها وأعلاها » .

« ان أول المرتبة النباتية وأدونها مما يلي التراب هي خضراء الدمن ، وليس بشيء سوى غبـــار يتلبد على الارض والصخور والاحجار ، ثم تصيبه الأمطار وأنداء الليل فيصبح بالغد كأنه نبت زرع وحشائش .. ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن [1] إلا في أيام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما ، لان هذا معدن نباتي وذلك نبات معدني . وأما النخل فهو آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية ، وذلك ان النخل نبات حيواني ، لأن بعض أحواله مباين لاحوال النبات ، وان كان جسمه نباتاً . بيان ذلك : ان القوة الفاعلة منفصلة من القوة المنفعلة ، والدليل على ذلك ان اشخاص الفحولة منه مباينة لاشخاص الاناث ، ولاشخاص فحولته لقاح في اناثها كما يكون ذلك للحيوان . فاما سائر النبات فان القوة الفاعلة فيها ليست

---

١ — واضيف لها «الفطر» في ٣ / ٢٢٥ .

بمنفصلة عن القوة المنفعلة بالشخص بالفعل .. وايضاً فان النخل اذا قطعت رؤوسها جفت وبطل نموها ونشوؤها وماتت . كل ذلك موجود في الحيوان ، فبهذا الاعتبار تبيَّن ان النخل نباتي بالجسم حيواني بالنفس ، اذ كانت أفعاله أفعال النفس الحيوانية ، وشكل جسمه شكل النبات .

وفي النبات نوع آخر فعله ايضاً فعل النفس الحيوانية لكنَّ جسمه جسم النبات ، وهو الكشوث ، وذلك ان هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الارض كما يكون لسائر النباتات ، ولا له اوراق كأوراقها ، بل انها تلتف على الاشجار والزروع والشوك ، فتمتص من رطوبتها وتتغذى بها ، كما يتغذى الدود الذي يدب على ورق الاشجار وقضبان النبات، ويقرضها فيأكلها ويتغذى بها . وهذا النوع من النبات وان كان جسمه يشبه النبات فان فعل نفسه فعل الحيوان . فقد بان بما وصفنا ان آخر المرتبة النباتية متصل باول المرتبة الحيوانية » .

« ان اول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات،

وآخر مرتبة الحيوان متصل باول مرتبة الانسان ، كما ان اول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية ، وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء .. فادون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط ، وهو الحلزون وهي دودة في جوف انبوبة ، تنبت تلك الانبوبة على الصخر الذي في سواحل البحـــار وشطوط الانهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الانبوبة وتبسط يمنة ويسرة تطلب مـــادة يتغذى بها جسمها ، فاذا أحسَّت برطوبة ولين انبسطت اليه واذا أحسَّت بخشونة أو صلابة انقبضت .. وليس لهـا سمع ولا بصر ولا شمّ ولا ذوق إلا الحس واللمس .. فهذا النوع حيوان نباتي لان جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات ويقوم على ساقه قائمـاً ، وهو من أجل ان يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان » .

« ان رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الانسانية ليست من وجه واحد ولكن من عدة وجوه . . ممنها مـا قارب رتبة الانسانية بصورة جسده مثل القرد ، ومنها ما قاربها

بالاخلاق النفسانية كالفرس في كثير من اخلاقه ، ومثل الفيل في ذكائه ، وكالببغاء والهزار ونحوهما من الاطيار الكثيرة الاصوات والالحان والنغمات ، ومنها النحل اللطيف الصنائع . . . فهـــذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الانسان لما يظهر فيها من الفضائل الانسانيـة » .

« ان من الحيوان ما هو تام الخلقة كامل الصورة كالتي تنزو وتحبل وتلد وترضع ، ومنها ما هو ناقص الخلقة كالتي تتكوّن من العفونات ، ومنها ما هو كالحشرات والهوام . . . وان الحيوانات الناقصة الخلقـة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق »[1] .

ويقول عبد الرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ :

« انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج ؛ آخر أفق المعادن متصل باول افق النبات مثل الحشائش ومـا

---

١ – رسائل اخوان الصفا: ٢ / ١٦٦ – ١٨١ ، ويراجع من الرسائل نفسها: ٢/١٥٠–١٥١و٣/٢٢٤–٢٢٨و٤/٢٧٦–٢٨٠

لا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول افق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات ان آخر افق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير اول افق الذي بعده . واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والرويـة »[1] .

ويقول صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ :

« اذا نظرت الى حال الاكوان العنصرية في تدرجها في الوجود وتكاملها وترقيهـا من ادنى المنازل الى ان تبلغ الى مجاورة الإله المعبود ، وجدت البرهان مطابقاً للوجـدان ، وذلك ان هيولي العناصر ، وهي الغايـة في الخسة والنقيصة بحيث لا يتصوّر ما هو أخس منها إلا العدم المحض لأن نحو وجودها في ذاتها هو قوة الوجود وتهيؤ قبول الصور والهيئات لا غير . فأول مـا قبلته : الامتداد القابل للطول والعرض والعمق اذ لا قوام لهـا

---

١ — مقدمة ابن خلدون : ٨١ .

إلا بالجسمية كما لا استقلال للجسمية إلا لصورة اخرى نوعية . وأدنى النوعيات الصورية هي الصور النوعية العنصرية فقبلتها بعد الجسمية المطلقة فحصلت العناصر الاربعة .. » .

« ثم التي تفاض على المادة بعد العناصر البسيطة هي الصورة الجمادية، وهي أفضل منها ، فان البسيط العنصري سريع قبول الفساد عند مجاورة غيره فينقلب بعضها على بعض عند المجاورة . . واما الصورة الجمادية فليست كذلك بل يرجى بقاؤها زمانا طويلاً او قصيراً لأنها في فضيلة الوجود بالقياس الى تلك الاربعة ، كأنها جامعة لها متضمنة اياها على وجه أعلى فكأنها توحّدت وصارت عنصراً واحداً متوسطاً في تلك الكيفيات الاربع المتضادة حداً من التوسط » .

« ثم يتفاضل اصناف الصور الجمادية واعدادها بعضها على بعض في فضيلة الوجود وقبول الآثار الشريفة ، فان منها ما هي ادنى وأخس قريبة الرتبة الى رتبة العنصر الاول كالجص والنورة والنشادر وغيرها ، ومنها ما

هي أعلى وأشرف قريبة إلى رتبة النبات كالمرجان ونحوه.. وما بين هذين الطرفين انواع وأصناف كثيرة لا تحصي متفاضلة متفاوتة في قبول الآثار ومبدئية الافعال، وهكذا تتدرج الطبيعة فيها من الأدنى حتى تبلغ بالمادة في الفضيلة الى ما يقبل صورة بزيادة آثار على آثار الصورة الجمادية وهي الصورة النباتية ، وتلك الآثار هي الإغتذاء والتمادي في الاقطار بالنمو ، فلا يقتصر النبات على حفظ المادة فقط كالجماد ، بل يجتذب ما يوافقه من المواد ويضمها اليه ويكسوها صورة كصورته فيتكامل بذلك شخصه » .

« ثم ضَربٌ منه لا يقتصر على هـــذا ، بل يقصد الديمومة في الوجود لا شخصاً وعدداً ، لأن ذلك ممتنع في هـذا النمط من الوجود ، بل نوعاً وماهية ، فيفرز من مادته بقوتـه المولدة قسطاً يصلح لقبول صورة مثـل صورتـه » .

« فبالجملة ، للنبات حالات زائدة على حال الجماد ، وافراده متفاضلة في تلك الحالات كماً وكيفاً وكثرة وشدة فتتدرج فيها شيئاً فشيئاً ، فبعضها ينبت من غير بـذر

ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه في حدوثه امتزاج الماء والتراب وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فذلك هو في افق الجمادات وقريب منها » .

« ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بتوليد المثل بالبذر الذي يخلف به مثله فتصير هذه الحال زائدة فيه مكملة له مميزة اياه عن حال ما قبله .

« ثم تقوى هذه الفضيلة في النبات حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الاول . وهكذا لا يزال يتدرج ويشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى أقصى مرتبته وافقه ويكاد يدخل في افق الحيوان وهو كرام الشجر كالزيتون والكرم والجوز الهندي ، إلا أنها بعد مختلطة القوى ، أعني قوتي ذكورها واناثها غير متميزتين فهي تتحمل زيادة ولم تبلغ غاية افقها الذي يتصل بافق الحيوان .

« ثم يزداد ويمعن في هذا الافق الى أن يصير في افق الحيوان فلا يحتمل زيادة ، وذلك انها ان قبلت زيادة

يسيرة صارت حيواناً وخرجت عن افق النبات فحينئذ تتميز قواها فتحصل فيهـــا ذكورة وانوثة وتقبل من فضائل الحيوان اموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر كالنخل الذي طالع افق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ؛ ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهي الانقلاع عن الارض والسعي الى الغذاء .

« وقد ورد في الخبر ما هو كالاشارة والرمز الى هذا المعنى في قوله صلوات الله وسلامه عليه وآله : (اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من بقية طينة آدم) .

« فاذا تحرك النبات وانقلع عن افقه وسعى الى غذائه ولم يتقيد في موضعه الى ان يسير اليه غذاؤه وكونت له آلات اخرى يتناول بها حاجاته فقد صار حيواناً . وهذه الآلات تتزايد في افق الحيوان من اول افقه وتتفاضل فيه فيشرف بعضها على بعض كما كان في النبات فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة وكمالاً فوق كمال حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والاذى ، فيلتذ بوصوله الى منافعه ويتألم بوصول مضاره اليه ، ثم يقبل

إلهام الله عز وجلّ اياه فيهتدي الى مصالحه فيطلبها والى أضدادها فيهرب منها .

« وما كان من الحيوان في اول أفق النبات لا يتزاوج ولا يخلف المثل بل يتولد كالديدان والذباب وأصناف الحشرات الخسيسة .

« ثم يتزايد فيها قبول الفضيلة كما كان ذلك في النبات سواء ، ثم تحدث فيه قوة الغضب التي ينهض بها الى دفع ما يؤذيها فيعطى من السلاح بحسب قوتها ، فان كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه قوياً ، وان كانت ناقصة كان ناقصاً ، وان كانت ضعيفة جداً لم يعط سلاحاً البتة بل يعطى آلة الهرب فقط كشدّة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه .

« وانت ترى ذلك عياناً من الحيوان الذي أعطي القرون التي تجري مجرى الرماح ، والذي أُعطي آلة الرمي التي تجري مجرى النبل والنشاب ، والذي أعطي الأنياب والمخالب التي تجري مجرى السكاكين والخناجر ، والذي اعطي الحوافر التي تجري مجرى الدبوس والطبر .

وأما ما لم يعط سلاحـــاً لضعفه عن استعماله أو لقلة شجاعته ونقصان قوة غضبه ، ولأنه لو أعطيه لصار كَلاً عليه ، فقد أعطي آلة الهرب، والحيل بجودة العدو والخفة وقوة الطيران كالغزلان والحيتان والطيور ، او المراوغة كالارانب والثعالب واشباهها .

« واذا تصفحت أحوال الموجودات من السبـــاع والوحوش والطيور رأيت هـذه الحكمة مستمرة فيها ، فامّـا الإنسان فقد عُوِّض عن هذه الآلات كلها بأن هُدي الى اتخاذها واستعمالها كلها وسخِّرت له هذه كلها .

« ان ما اهتدى منها الى الازدواج وطلب النسل وحفظه وتربيته والإشفاق عليه بالكنّ والعش والكناس كما يشاهد في ما يلد ويبيض وتغذيته اما باللبن واما بنقل الغذاء اليه فانه أفضل ممـا لا يهتدى الى شيء ، ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوانـ حتى يقرب من أفق الانسان ، فحينئذ يقبل التأديب ويصير بقبوله الأدب ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات الاخر .

« ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى يتشرف

بها ضروب أشرف كالفرس المؤدب والبـــازي المعلَّم والكلب المفهَّم . ثم يصير في هذه المرتبة الى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ويتشبه بـه من غير تعليم وتاديب كالقردة وما أشبهها ، وتبلغ من كمال ذكائها الى ان تكتفي في التأديب بان ترى الانسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير ان يحوج الإنسان الى تعب بها ورياضة بها . وهذا غايـة أفق الحيوان الذي ان تجاوزهـا وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن افقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها . فاذا بلغ تلك المرتبـة تحرك الى المعارف واشتاق الى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله تعالى يقتدر بها على الترقي والامعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الأخر التي ذكرناها .

« وأول هذه المراتب في الأفق الانساني المتصل بآخر ذلك الافق الحيواني ، من مراتب الإنسان ، للذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب ... من الأمم التي لا تتميز عن القردة إلا بمرتبـــة يسيرة . ثم تتزايد فيهم

قـوة التمييز والفهم الى ان يصيروا الى حال من يكونون في اوساط الاقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة قبول الفضائل .

« والى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله تعالى بالموجودات المحسوسة عند الجماهير من الحكماء . وأما عندنا فالى اوائل أفق الحيوان ينتهي فعل الطبيعة والاكوان المحسوسة المادية ، ومن هناك يبتدىء فعل النفس ... حتى يبلغ الى هذا الموضع . ومن ها هنا يقع الشروع في اكتساب الفضائل الزائدة عن فضائل الحيوان بما هو حيوان ، واقتناء العقليات بالارادة والسعي والاجتهاد حتى يصل الى أفق الملأ الأعلى والملائكة العلويين ، وهذه أعلى مرتبة الإنسان بما هو إنسان . »

ثم يقول الشيرازي ملخصاً كل ذلك :

« ان كل مرتبة منها محتاجـــة الى ما قبلها في وجودها . . . وان الانسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يحصل له جميع ما قبله[1] . »

---

١ ـ الاسفار الاربعة : السفر الثاني : ٢/٣٤٣-٣٤٨ .

ويقول الشيرازي ايضاً في خلال حديثه عن (الكمالات التي تستكمل بها المادة وتتوجه اليهــــا الطبيعة مثل صيرورة الجسم الطبيعي نباتاً ثم حيواناً ثم انساناً) :

ان « صورة النباتية مما تستكمل بهــــا الطبيعة الجسمية الارضية ، صائرة بها نوعاً خاصاً تترتب عليها آثار مخصوصة غير ما ترتبت على الجسمية العامة من الشكل الطبيعي والحيز الطبيعي والمقدار والوضع وغيرها وكذا صورة الحيوانية كالنفس الدراكة الحراكة اكمالٌ أتمّ وأفضل من القوة النباتية يصير بها الجسم الطبيعي بعد استعداده الأقرب واستكماله جسماً نامياً أمراً خاصاً أكمل وأشرف مما كان في المرتبتين السابقتين يترتب عليه ما يترتب على الأجسام عموماً من التشكل والتحيز والتقدر والتكيف بالكيفيات المحسوسة وغيرها وعلى الاجسام النباتية خصوصاً من النمو والتغذي والتوليد وهي اللواحق الحيوانيـة من المشي والشهوة والغضب والأكل والجماع وغيرها »[1] .

---

١ — الاسفار الاربعة : السفر الثاني : ٢/١٦٩-١٧٠ .

ويقول أيضاً في التعبير عن التطور :

« ان الاشتداد كما يقع في الكيف يقع في الجوهر ، وان الموضوع للحركة الجوهريـة في الطبايع المادية وحدتـه الشخصية ... فاذن يصح وقوع الحركة في الجوهر ... كما في استكمالات الجوهر الانساني من لدن كونه جنيناً بل منسياً الى غاية كونه عقلاً بالفعل وما فوقه » .

ثم يقول :

« ومما ينبه على هذا المطلب ويؤكده ان المنيّ في الرحم يزداد كمالاً حتى يصدر عنه فعل النبات ثم يتكامل حتى يصدر عنه افعال الحيوان ثم آثار الانسانية » .

و « لا شك ان للطبيعة القائمـة بمادة النطفة اقتضاءً في الاستكمال وتوجهاً غريزياً نحو تحصيل الكمال ، وليس توجهها واقتضاؤها مبطلاً لنفسه ومفسداً لصورته » .

و « كما ان الصورة الطبيعية كمال للمادة الجسمية ، فكذا الصورة النباتية كمال وسبب غائي للصورة الطبيعية وكذلك الحيوانية غاية كمالية للنفس النباتية ، وهلم جرا

الى درجة العقل المستفاد وما بعده . وفي هذه الدرجات والمقامات وحدة موضوع الحركة محفوظة بواحد بالعموم من الصورة ، وهو نوع ما من الصور المتعاقبة على الاتصال تستحفظه وحدته الاتصالية بواحـد بالعدد من الجوهر الفعال المفيض للكمال بعد الكمال حسب تزايد الاستكمال بتوارد الاحوال ، والاتصال ايضاً ضرب من الوحـدة الشخصية وان كان على سبيل التدريج وعدم الاستقرار »[1]

* * *

هذه نصوص مفصلة اقتبسناها من تراثنا الفلسفي العظيم ، ووضعناها بين يدي القارىء الكريم ، ليقف على الحقيقة ـ كما هي ـ جلية المعالم واضحة القسمات بينة الاسارير .

ولنسأل انفسنا بعد قراءة هذه النصوص :

ما هي حصيلة هذه الصفحات ؟

وسيكون الجواب بكل بساطة :

---

١ ـ الاسفار الاربعة / السفر الثاني : ١/٢٧٣-٢٧٥ .

« التطور » بأبرز اشكاله وأجلى معانيه .

واذن ....فهل بقي لداروين وعشاقه ما يمكن التبجح بـه من الابتكار والجدّة والخروج على الدنيا بما لم يخطر على بال ؟ ! .

ولـما كان اخوان الصفا وابن خلدون والشيرازي من الفلاسفة « اللاهوتيين » المؤمنين بالله تعالى حقّ الايمان والمقرين برسالة الاسلام كلّ الاقرار ، فان معنى ذلك ـ بصريح العبارة ـ ان افكارهم التطورية هذه لم تصطدم بالدين .

ويكون معنى ذلك ـ بصريح العبارة ايضاً ـ : ان الفكر التطوري ليس خطراً على الدين ، وان « جماعات الفلسفة اللاهوتية » لا يرتابون من الحقائق العلمية .

واذا كان هذا واضحاً ومسلماً ـ كما اسلفنا ـ فليقرأ معي القارىء ما يقوله الدكتور جورج حنا اثناء حملته التضليلية على الدين :

« كانت نظرية داروين في الاساس ثورة بيولوجية ،

رأى فيها اللاهوتيون نذير خطر على تعاليمهم الميتافيزيقية اليقينية ... ان العلم استمر في اثبات حقيقتها . والحقائق العلمية كانت ـ دائماً ـ وما تزال موضع الريبة والقلق عند جماعات الفلسفة اللاهوتية »[1] .

ولو كان الرجل موضوعياً وعلمياً وصادقاً لقال :

كانت نظرية داروين في الاساس فكرة فلسفية ذهب اليها اللاهوتيون وشرحوها شرحاً فلسفياً مفصلاً .

وهكذا فلتكن (المنهجية) و (الامانة العلمية) !!.



---

١ ـ قصة الانسان : ١٩٩.

٣

عندما نطلق على رأي ما كلمة(نظرية) فلا بد انه قد تجاوز مرحلة الاحتمال والتردد الى مرحلة القطع واليقين ، وهذا ما نجده بديهياً لدى جميع العلماء والباحثين ؛ على اختلاف الاتجاهات والاختصاصات .

ومن حق بحثنا هنا أن نتساءل :

هل بلغت افكار داروين التطورية ذلك الحد العلمي المتفق عليه ، ليصح اطلاق اسم (النظرية) عليها ؟

والجواب الصريح على ذلك :

كلا . . والف كلا .

ولقد اعتمد الرجل في صياغة (نظريته) على مجموعة (افتراضات) و (تخمينات) لم يستطع ان يقيم عليها

برهاناً ولا بعض برهان ، فبنى على أساسها الواهي هيكل نظريته الشامخ الكبير .

ولست في ذلك زاعماً أو مدعياً كما قد يتصور بعض المتصورين ، وانما استندت فيه على ما اعترف به داروين في كتابه من اعتماد نظريته على الافتراضات والاحتمالات . وان كان هذا الاعتراف لم يمنعه من بناء (الطوابق الفوقية) التي زعم لها المتانة والصلابة والقوة والرسوخ ، ناسياً او متناسياً أساسها الافتراضي الضعيف .

ولنأخذ مثلاً عن ذلك موضوع (التحول) :

ان التحول ـ كما تقول النظرية ـ قد أدى الى نشوء أنواع و انقراض أنواع على مرّ العصور ويكون معنى ذلك ـ انْ صحّ ـ أن نعثر على نماذج لا تحصى من تلك الانواع المتغيرة المتحولة ، فاين هي الان تلك النماذج والانواع ؟ .

ولماذا لم نعثر على أثرٍ لها على الرغم من هذه الحفريات الهائلة التي عمّت الكرة الارضية وشملت معظم

بقاعها وأطرافها وزواياها وجوانبها الرحبة ؟ .

وقد أثار هذا الموضوع انتباه داروين بالذات فتساءل قائلاً :

« ان صوراً انتقالية وسطى تربط بين كثير من العضويات التي نلحظها في الطبيعة لا بد من ان تكون قد عمرت الأرض في خلال الازمان الاولى ، فاذا كان الانقراض قد مضى بتلك الصور فلِمَ لا نجـــد هيا كلها العديدة مطمورة في الطبقات التي تؤلف سطح الكرة الارضية ؟ » .

ثم أجاب بنفسه على سؤاله فقال :

« دَفعُ هذا الاعتراض ينحصر في ضرورة الاعتقاد بأن السجل الجيولوجي الذي يؤيدصحة مذهب النشوء ، على حـالة من الاضطراب والنقص قلّ أن تسبق الى حدس الباحثين » (١) .

وقال ايضاً في مكان آخر من كتابه :

---

١ ــ اصل الانواع : ٣٣٠ .

« أما القول بأن مجموعاتنا الجيولوجية ناقصة فحقيقة لا ينكرها أحد من الباحثين »[1] .

وأكد هذا المعنى في مكان ثالث فقال :

« لا تختلجنا الرِّيَب وفقاً للاعتبارات التي أدلينا بها من قبل ، في أن السجل الجيولوجي اذا أخذ في مجموعه ظهر على جانب عظيم من النقص »[2] .

وقال كذلك :

« ان السجل الجيولوجي بوصفه تاريخاً لهذه الدنيا ، انما هو سجل ناقص ومكتوب بلهجات متغايرة على الدوام ، واننا لا نملك من هذا السجل إلا المجلد الاخير . ولم يبق كاملاً من هذا المجلد غير فصول قصار تناثرت هنا وهناك ، كما لم يبق من كل صفحة منها إلا بضعة سطور »[3] .

وقال أيضاً :

---

١ – اصل الانواع : ٥٥٨ .
٢ – اصل الانواع : ٥٦٧ .
٣ – اصل الانواع : ٥٩٠ .

« ان السجل الجيولوجي ناقص نقصاً كبيراً ... وان عدد كل من النماذج المفردة والانواع التي يحتفظ بها في متاحفنا ، تكاد تكون شيئاً غير مذكور الى جانب ذلك العدد الكبير من الاجيال التي قد مضت حتى في خلال تراكم تكوين واحد من التكوينات الجيولوجية »[1] .

وأضاف قائلاً :

« لماذا لا تزودنا كل مجموعة من البقايا الحفرية بشواهد واضحة على التدرجات والطفرات في اشكال الحياة ؟ اننا لا نصادف مثل تلك الشواهد ، وهذا هو أوضح وأقوى كل الاعتراضات الكثيرة التي يمكن أن توجه ضد نظريتي.

ولماذا ايضاً تظهر مجموعات بأسرها من الانواع المتشابهة ؟ ...

ولماذا لا نجد اكداساً كبيرة من الطبقات تحت النظام السيلوري زاخرة ببقايا أسلاف مجموعات الحفريات السيلورية ؟ ...

---

١ — أصل الأنواع : ٦٢٦ .

« لا يمكنني أن اجيب على تلك الاسئلة والاعتراضات الخطيرة إلا على فرض ان السجل الجيولوجي أبعد ما يكون عن الكمال اكثر مما يعتقد معظم الجيولوجيين »[1].

وهكذا يتكرر التأكيد الدارويني – وبكل هذه الصراحة والوضوح – على نقص السجل الجيولوجي ، بل على كونه (على جانب عظيم من النقص) .

ولكن الشيء الملفت للنظر ان هذا الاعتراف الصريح من داروين لم ينعكس على افكاره التي أودعها كتابه وعرضها بشكل يقيني جازم ، وعلى احكامه التي منحها طابع القطع والشمول والعموم ، بل كان في بعض الاحيان يحاول تبرير هذا اليقين والجزم فيقول :

« لا نتوقع أن نجد في نظام الطبيعة صوراً عديدة من الضروب الوسطى في كل بقعة من البقاع قائمة بذاتها ، وان كان لا محيص لنا من الاعتقاد بأنها لا بد من أن تكون قد وجدت في عصر ما من العصور الاولى ، وانها

---

١ – اصل الأنواع : ٧٥٠ – ٧٥١ .

طمرت في باطن الارض »[1] .

وبهذا التبرير الغريب يكون داروين كالقاضي الذي يصدر حكمه على متهم بالادانة ، وليس لديه أي دليل على ارتكاب هـذا المتهم للجريمة سوى الاعتقاد الشخصي بان هناك أدلة قطعية للاثبات ولكنها قـــد فقدت – وياللأسف – ، ولو تمَّ العثور عليها لكانت مقنعة لكل من يراها ؟ !! .

وما أدري ... هل يكون هذا العذر مبرراً للإدانة ومقنعاً لرجال العدالة ؟! .

وكلمة حق يجب أن تقال هنا :

ان داروين قد أحسَّ بالوهن واللا علمية عندما قال – رجماً بالغيب – في ما مرَّ : (لا محيص لنا من الاعتقاد) ! فعاد الى الموضوع مرة اخرى في كتابه وسطر مكان (الاعتقاد) السالف الذكر كلمة (افتراض) فقال :

« ربما نتساءل : أين هي بقايا تلك العضويات العديدة

---

١ – اصل الانواع : ٣٣١ .

غير المتناهية الصور التي يجب أن تكون وُجدت قبل أن تترسب المجموعة الجمبرية بأزمان طويلة ؟ واننا لنعرف انه لم يعش في ذلك العصر غير حيوان واحد . غير اني لا أستطيع الرد على هـــذا التساؤل إلا بأن أفرض ان رقعـــة بحارنا الحالية قد امتدت حيث هي الآن آماداً عظيمة المقدار ... غير أنه من قبل ذلك العصر بزمان طويل كان للدنيا مجلى يختلف تماماً عن مجلاها الحـاضر »[1] .

وهكذا عاد البحث بكل ما فيه من احكام وقطعيات و (اعتقاد) (لا محيص منه) الى افتراض .. مجرَّد افتراض ... !

* * *

ومَـثلٌ آخر على الاساس (الافتراضي) و (المجهول) لهذه النظرية :

يقول داروين ـ خلال حديثه عن التحول باعتباره

---

١ ـ أصل الانواع : ٦٢٨ .

عاملاً رئيسياً من عوامل نظريته ـ ما نصه :

إنَّ « الاستعداد للتحول محـــدود بكثير من السنن المعروفة ، اكبرها شأناً سنَّـة تبادل الصلات في النماء »[1] .

وللقراء والباحثين حق التساؤل والاستيضاح عن (سنة تبادل الصلات في النماء) هذه ، ما حقيقتها ؟ وماذا يراد بها ؟ وكيف اصبحت هذه (الصلات) سنَّة ومن اكبر السنن شأناً في الاستعداد للتحول ؟ وهل كان داروين يفهم هـذه السنَّـة ليقوم بشرحها لنا بشيء من تجلية وتبسيط ؟

يقول داروين :

« لا ينبغي ان نعاب على مـــا لم نظفر باستجلاء غامضه من قضية أصل الانواع والضروب ، فان جهلنا ـ الجهل كله ـ حقيقة الصلات المتبادلة بين العضويات التي تعيش من حولنا ، لا يترك في التورط في لومنا سبيلاً . مَنْ من الباحثين يستطيع ان يوضح لنا سرَّ ان نوعاً ما يكون كثير الذيوع وافر العدد ، وان نوعاً آخر يمتُّ

---

١ ـ اصل الانواع : ١٦٥ .

اليه بحبل النسب يكون قليل الانتشار ضئيل العدد »[1] .

ويقول في موضع آخر :

« نعتقد اعتقاداً ثابتاً اننا نجهل - الجهل كله - سنن تبادل الصلات بين الكائنات العضوية عامة . ويكاد يكون هذا الاعتقاد من الضرورات »[2] .

وهكذا يصرح داروين - بملء فيه - انـــه « يجهل » «الجهل كله» «سنن تبادل الصلات بين الكائنات العضوية» ، وانه «يعتقد» «اعتقاداً ثابتا» «أنه يجهل» ، وان «الاعتقاد» بهذا الجهل من « الضرورات » .

ومع ذلك ، فقد أقام على هذا «الجهل» ، صرح التحول بكل ما فيه من خطورة وأهمية بالغتين .

وما دمنا نتحدث عن «التحول» فان من امانة البحث أن نشير الى أن هذا « التحول » بكل أطرافه وجوانبه - وليس جانب سنن تبادل الصلات بمفرده - قائم عنـــد

---

١ - اصل الانواع : ١٢٢ .

٢ - المصدر نفسه : ٢١١ .

داروين على برهان « الجهل » و « عدم الاستبانة » و « عدم ادراك الكنه» ! ، ولعل في النصوص الداروينية التاليـة ما يغني عن الاطالة والتفصيل .

يقول داروين :

« ان جهلنا بسُنن التحول كبير ، ولا نستطيع أن نعيِّن في حالةٍ من المائة السبب الصحيح في تحول هذا العضو أو ذاك»[1] .

« اننا لا نستبين أسبابها في غالب الحالات»[2] .

« تلك الحالات التي لا نستبين من اسبابها شيئاً»[3] .

« تلك الاسباب التي نوقن بوجودهـا ولا ندرك لهـا كنهاً »[4] .

« الى اي حدٍّ يصل جهلنا بالكثير من تلك الوسائل

١ ـ أصل الأنواع : ٣٢٥ .
٢ ـ المصدر نفسه : ٣٢٥ .
٣ ـ المصدر نفسه : ٣٢٦ .
٤ ـ المصدر نفسه : ٣٢٧ .

العجيبة التي تؤدي الى النقلة »[1] .

« واذا انتقلنا الى التوزيع الجغرافي نجد ان الصعوبات التي تواجه نظرية التطور خطيرة بما فيه الكفاية »[2] .

« ونحن ما زلنا نجهل جهلاً مطبقاً الكثير من وسائل الانتقال العرضية »[3] .

« وانّنا لنعترف بهذا الجهل ، ويزداد ايماننا به اذا ما تاملنا في ذلك التباين البيّن الذي نلحظه واقعاً بين سلالات الحيوانات الداجنة المنتشرة في بقاع مختلفة من الكرة الارضية »[4] .

ثم يلخص داروين كل تلك (الجهالات) المتراكمة فيقول :

« أنا لا أنكر ان هناك اعتراضات خطيرة وكثيرة

---

١ ـ أصل الانواع : ٦٩٧ .
٢ ـ المصدر نفسه : ٧٤٨ .
٣ ـ المصدر نفسه : ٧٤٩ .
٤ ـ المصدر نفسه ٣٧٧ .

يمكن أن توجه ضد نظرية التطور»[1] .

وما أدري كيف يلتئم هذا (الجهل المطبق) و (عدم ادراك الكنه) و (الصعوبات الخطيرة) و (الاعتراضات الكثيرة) التي يعترف بها داروين ، مع اعتبار ما قاله نظرية علمية لا يجوز التشكيك فيها ولا الاعتراض عليها أبداً ابداً ؟! .

وهل هذه الافكار القائمة على (الجهل) بكل شيء هي التي (رأى فيهــا اللاهوتيون نذير خطر على تعاليمهم الميتافيزيقية) كما يحلو لكاتبٍ ما أن يزعم ويؤكد ؟!! .



١ - أصل الانواع : ٧٤٦ .

٤

هناك مسالة بديهية في الحقل العلمي لم يختلف فيها اثنان من علماء الطبيعة ولم يشذ عنها شاذ من فلاسفة المادة ، تلك هي :

ان الطبيعة قوة عمياء وعفوية وعشوائية ومجردة عن القصد والوعي والارادة والادراك .

وقد بلغت هذه المسألة من البداهة ما استغنت به عن اقامة البرهان وبيان الدليل .

ولكن هذه الطبيعة العمياء العشواء ، كانت – في نظرية داروين – على درجة عظيمة – بل هائلة جداً – من الوعي والادراك والتصميم المخطط المتعمد المقصود ، حيث يرى ان كل حركة من حركاتها وكل تصرف من

تصرفاتها مدروس بعناية ومصمم بدقة ومتجه الى هدف خاص وقائم بمهمة معينة !! .

يقول داروين :

« انك لا تجـــد في الطبيعة تراكيب اكثر جمالاً من صدفة الدياتومية الصوانية الا قليلاً . فهل ُخلقتْ تلك التراكيب العجيبة لكي يعجب بها الانسان اذا ما كشف عن جمالها باكبر قوة مجهرية يعرفها في الوقت الحاضر ؟ .

ان الجمال في الحالة الاخيرة وفي كثير من الحالات راجع في غالب الأمر الى التناسق في النماء . فالازهار مثلا من أجمل ما تقع عليه العين في نظام الطبيعة برمتها ، غير أنها لم تصبح ظاهرة جلية تأخذ الانظار ببهجتها من بين الاوراق الخضر ولم تخصها الطبيعة بقسط وافر من الجمال الخلقي إلا لتستطيع الحشرات ان تلحظها بسهولة تامـة ، عرفتُ ذلك من مشاهدات عديدة ، منها :

ان في الطبيعة النباتية قاعدة ثابتة هي ان الازهار التي تلقحها الرياح لا تكون اوراقها التويجية ذوات الوان

زاهية تستلفت النظر . ومنها ان كثيراً من النباتات تخرج نوعين من الازهار ، مفتح الاكمام زاهي اللون ليجلب اليه الحشرات ، والثاني متضام الاكمام معدوم اللون والعصارة وهـــذا لا ترتاده الحشرات بحال ما . ومن هذا نستنتج ان الحشرات اذا لم تكن قد استحدثت في الارض فان النباتات لم تكن لتهيأ بازهـــار جميلة زاهية اللون ، ولأضحت ذوات ازهار ضئيلة »[1] .

ويقول في موضع آخر :

« ولا يستحدث الانتخاب الطبيعي من ناحية اخرى تركيباً في كائن عضوي تكون جهـة الاضرار بالغير فيـه راجحة على جهة الانتفاع به لذلك الكائن ، لأن الانتخاب – كما سبق القول فيه – لا يؤثر إلا من طريق الفائدة والنفع العائد على الاحياء ذواتها »[2] .

ويقول ايضاً :

---

١ – أصل الأنواع : ٣٨٠ – ٣٨١ .

٢ – المصدر نفسه ٣٨٣ .

« فاذا استطاعت الطبيعة ـ وهي لا شك مستطيعة ـ ان توازن بالقسط بين اوجـــه الضرر وأوجه النفع التي يجنيها كائن ما من عضو فيه ، فالمجموع في ذاته يكون مفيداً . اما اذا سيق جزء من اجزاء التراكيب العضوية على مرّ العصور وبتأثير حالات الحياة المتغايرة ، ممعناً في ناحية الضرر ، فالتهذيب لا محالة لاحقه . فاذا لم يتهذب بما يحول دون الضرر ، فذلك الكائن لا بد من أن ينقرض من الوجود كما انقرضت من قبله صور لا تحصى وكائنات لا عدد لها »[١] .

وهكذا افترض داروين في الطبيعة انها على هـــذه الدرجـة العظيمة من الوعي والشعور والعمل المخطط والانتقاء المقصود !! .

وهذا كله مما لا ينسجم مع واقع الحال في الطبيعة كما يعلم كل المعنيين .

---

١ ـ أصل الأنواع : ٣٨٤ .

ولعدم انسجام ذلك مع الحقيقة نجد ان داروين نفسه قد استغرب وتعجب كثيراً من (وعي) الطبيعة المزعوم فقـال :

« لماذا لا نرى الطبيعة في تهوش وتخالط يقتضيهما تسلسل الصور ؟ بل نرى الانواع صحيحة متميزة لا خلل في نظامها ولا التباس » .

« هل من المستطاع ان حيواناً له تركيب الخفاش وعادته مثلا ، قد يستحدث بالتهذيب وتحول الصفات من حيوان آخر مختلف عنه اختلافاً بعيـــداً في العادات والتركيب العضوي » ؟! .

« وهل نقوى على الاعتقاد بأن الانتخاب الطبيعي في مستطاعه ان ينتج من جهةٍ عضواً في الغاية الاخيرة من اتضاع المكانـــة كذنب الزرافة الذي تستخدمه لدفع الهوام عنها ، وأن يحدث من جهة اخرى عضواً غريب التركيب دقيق التكوين متعدد المنافع كالعين مثلا ؟! » .

« بِمَ نعلل عقر الانواع لدى تهاجنها، وانتاجها انسالا

عواقر لا تلد ، بينما يزيد التهاجن من صبوة الضروب ويضاعف من قوة الانتاج فيها ؟! »[1] .

واننا عندما نقرأ هذه النصوص الداروينية المتناقضة نقف حائرين :

فاذا كانت الطبيعة واعية كما قال اولا ، حيث تمنح الزهور جمالهـا لتنجذب اليها الحشرات ! ، وحيث لا تستحدث تركيباً جديداً في أي كائن عضوي اذا كان مضراً بالغير ! ، وحيث توازن بين أوجه النفع وأوجه الضرر ، وحيث ... وحيث ..

اذا كانت الطبيعة على هـذا المستوى الرفيع جـداً من الوعي العبقري فلماذا يعجب من عدم الخلل في نظامها ؟ ولماذا يستغرب من تحول الخفاش من حيوان آخر مختلف عنه ؟ ! ! .

أما اذا كانت الطبيعة ـ كما يقول الماديون وغيرهم ـ

---

١ ـ أصل الانواع : ٣٢٨ـ ٣٢٩.

عشوائية و (لا تضع اهدافاً) [١] و (تعمل فيها قوى عمياء عفوية)[٢] فكيف أمكن لداروين أن ينسب لها كل ما مرَّ ذكره من خلق وابداع وتوازن وتنسيق ؟ ! .



---

١ — المادية الديالكتيكية : ٢٠٨ .

٢ — المصدر نفسه : ٢٧٨ .

٥

يرى داروين – كما يشاهد كل قارىء لكتابه – ان التطور قانون حتمي وليس صدفة قد تكون وقد لا تكون ، وان ذلك القانون تقدمي متجه الى الامام وسائر نحو الأعلى مرحلة بعد مرحلة وشوطاً بعد شوط .

يقول داروين :

الانتخاب الطبيعي « سُنّة طبيعية تسوق الى تهذيب الكائنات الحية .. وتدفع النظام العضوي برمته الى التقدم والارتقاء[1] » .

ويقول :

« ... مدارج النشوء التي طرأت على أي عضو من

---

١ – اصل الانواع ٢٨١ .

اعضاء نوعٍ ما حتى بلغ أقصى حدٍّ مستطاع من الكمال النسبي »[1].

ويقول :

« ان الاستقراء المنطقي الصحيح ليسوقنا الى أن نعزو حدوث هذه الغرائز والحالات الى سنَّة عامة تعمل على تنشُّؤ الكائنات العضوية وترقيتها »[2] .

ويقول :

« ان سكان الارض على تعاقب الادوار الزمانية .. قد هزمت اسلافها في التسابق على البقاء ، وانها لذلك كانت أرقى منزلة في سلَّم الطبيعة »[3] .

وهكذا تصرح هذه النصوص الداروينية وتؤكد قانونية التطور وتقدميته ، فهل ذلك ثابت عملياً ؟ وهل هناك من دليل يدل عليه ؟

---

١ ـ اصل الانواع ٣٥٠ .
٢ ـ أصل الأنواع ٥٠١ .
٣ ـ اصل الانواع ٦٣٠ .

أما ان التطور قانون فذلك ما ترفضه كلمات من جاء بعد داروين من علمـــاء البيولوجيا على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم .

ويكفينا من كل هؤلاء أن نقرأ ما ذهب اليه الكاتب الماركسي جون لويس اذ قال :

« يعتبر عصر البليوسين الذي انتهى منذ ثلاثة ملايين سنة آخر نقطة في تطور الثدييات ، ومنذ ذلك الوقت لم تحدث سوى تغيرات طفيفة فقط ولم تظهر أية اجناس جديدة من الحيوانات »[1] .

وقال :

« ليس من الضرورة لأن يتحول المخ بيولوجيا الى شيء ما اكثر رقيا »[2] .

وقال :

« فالتاريخ لا يذكر أية تغييرات جذرية منذ العصر

---

١ ــ الانسان والارتقاء : ٩٠ .

٢ ــ الانسان والارتقاء : ٥١ .

الحجري »[1].

وقال :

« الانسان هو المرحلة الاخيرة التي تعبّر فيها الطبيعة عن نفسها »[2].

ومعنى ذلك ان التطور قد انتهى في هذه المرحلة ولم يعد له مجال للتحرك ، أي انــــه ليس قانوناً من قوانين الطبيعة كما يزعمون ، لأنــ القانون الطبيعي ليست له مرحلة اخـــيرة يصل اليها ليستقر أو ينام او يموت ، خصوصاً وانهم قد صرحوا وأكدوا ان هذا التطور من نتائج صراع الأضداد ، وصراع الأضداد – في زعمهم – قانون طبيعي حتمي لا مفر منه ولا محيص .

ولقد أحس جون لويس بفظاعة هذه النتيجة فتخبط في محاولة التخلص من شرك هـــذا الاشكال ولكن دون جدوى وبلا محصَّل علمي مقبول .

---

١ – الانسان والارتقاء :١١٥ .

٢ – المصدر نفسه : ٨٣ .

انه يقول تارة :

« لقد طور الانسان عمليـة الارتقاء ! ... وانتقل موضوعياً من منهج المصادفـات الذي يخضع له التغير الوراثي والانتقاء الطبيعي [1] ».

ويقول مرة اخرى :

« ان تغييراً جذرياً قـد حدث في شكل سحيق من اشكال الحيوان فأدى الى تجاوز الانسان حدود الطبيعة [2] »

ويقول في موضع ثالث :

« لقد دخل الانسان مضماراً جديداً حيث تتحكم قوانين اخرى تماماً .... أما كل الحيوانات الباقية فتتعلق بالتغير الوراثي الذي يتم بالمقارنة مع التاريخ ببطء شديد . ثم ان التغيرات الوراثية للحيوانات أخذت تتباطأ اكثر فاكثر بقدر ما كان كل نوع يزداد تخصصاً ويتحوّل الى نموذج وراثي ثابت . فأسلاف الانواع الحالية بما انها كانت

---

١ ــ الانسان والارتقاء : ٥٥ .

٢ ــ الانسان والارتقاء : ٤١ .

أقل تخصصاً كانت تتغير بسرعة اكبر [1] ».

وهكذا يتجلى التخبط الذي وقع فيه جون لويس فلم يستطع التخلص منه ! .

انه يرى ان التطور خاضع (للمصادفات) ، ويرى ان الانسان قد تجاوز حـــد التطور ، ثم يرى ان هناك فرقاً بين الانسان وبقية أصناف الحيوانات ـ وذلك ما لم يقل به أيٌ من علماء التطور الماديين ـ ، ثم طلع علينا ـ كما طلع غيره ـ بعذرٍ يبرر به وقوف (قانون التطور) أو تبخُّره ، وكان ذلك العذر هو (التخصص) .

فما هو هذا (التخصص) ياترى ؟ !.

يجيبنا جون لويس نفسه على السؤال فيقول :

« عندما يصبح الحيوان ذا صفات خاصة وبنية معقدة الى حد كاف فانه لا يستطيع أن يعيش إلا في الحدود التي تسمح له بها صفاته الخاصة كما انه لا يستطيع أبداً أن يعود الى الوراء ويتطور من جديد باتجاه آخر .. »

---

١ ـ الانسان والارتقاء : ١١٦ .

« ان التخصص أمرٌ لا يمكن الرجوع عنه ... ومن الممكن ان ندعو الحيوانات ذات التخصص العالي بأدوات أو اجهزة حية من نوع خاص ، مصممة ومكيفة من أجل ظروف خاصة ونموذج حياتي خاص ، إذ ان مثل هذا النوع لا يمكنه التغير ولا التكيف أكثر مما هو عليه ... ان الثدييات الاخرى ، وحتى القرود منها ، [عدا الانسان طبعاً] لا تتمتع بهذه الامكانية لأن تطورها سار في خط التخصص[1] ».

ويقول ايضاً :

« ان الخلد الذي يحفر السراديب في الارض نراه متكيفاً بعظامه وجلده وعينيه وعضلاته للحفر ... وقد أصبح من المستحيل عليه بعد أن تكيَّف على هذا النحو مرة ! أن يتغير ويصبح على غير ما هو عليه ، فهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء آخر لأنه متخصص الى أبعد حدود التخصص[2] ».

---

١ ـ الانسان والارتقاء : ٢٥ـ٢٨ .

٢ ـ الانسان والارتقاء : ٣٨ .

وعندما نمعن النظر في هذا الكلام يتضح لنا أن كل الحيوانات قد سارت في طريق (التخصص) وان ذلك أمر لا يمكن الرجوع عنه، وانَّ السبب في هذا التخصص هو كون هذه الحيوانات «مصممة ومكيفة من أجل ظروف خاصة ونموذج حياتي خاص».

وماذا قال الفكر الديني غير ذلك ؟

وأين التطور وقانونه ؟ والحركة وذاتيتها ؟.

وهل لقانون التطور فترة معينة من التاريخ لا يتقدم عنها ولا يتأخر ؟

وهل لذاتية الحركة وصراع التناقضات موسم معين من مواسم الحياة على سطح الكرة الارضية ؟

اقرأ .. وتأمل .. واستنتج ..

أما تقدمية التطور كما أكدها داروين ورددها من بعده عديدون فقد رفضها العلماء المختصون، واليك بعض اقوالهم في الموضوع :

يقول جون لويس :

« نحن عندما نؤكد ان التقدم البيولوجي واضح الى درجة كافية فاننا بهذا لا نؤكد ان التقدم يجب ان يكون شاملاً والزامياً »[1].

ويقول في موضع آخر من كتابه :

« ان الطفيليات ، مثل الديدان الشريطية ... تعتبر اشكالاً رجعية لا اشكالاً تقدمية[2] ».

ويقول ايضاً :

« لقد عرف الارتقـــاء العضوي كثيراً من حالات الفشل والانحراف التي كانت تؤدي به غالباً الى طريق مسدود أو الى التقهقر[3] ».

ولا يفوتنا ونحن نقرأ اعترافات جون لويس هـذه ان نشير الى أنه قد نسي ذلك كل النسيان حينما قال في صدر كتابه :

---

١ ــ الانسان والارتقاء : ٢٣ .
٢ ــ الانسان والارتقاء : ١٠١ .
٣ ــ الانسان والارتقاء : ١٥٠ .

« الأمر المدهش في عملية الانتقاء هو أنها تخلق بشكل آلي وطبيعي ارتقاءً تقدمياً في النماذج الحيوانية . وبتعبير آخر فاننا هنا امام عملية تتوجه وتتطور ذاتياً وتنشىء باستمرار درجات أعلى من التنظيم البيولوجي »[1] .

ولعل من أصرح ما يقال في هذا الموضوع ما صرحت بـه العالمة الانكليزية دوروثي ديفدسن في مقدمة كتابها فقـالت :

« لعل اشهر مغالطة هي الاعتقاد بان التطور سار بتقدم مستمر ، بحيث ان كل مجموعـــة من الحيوان او النبات أرقى من سابقتها بصورة مطردة[2] » .

وليس لنا ما نقوله تعليقاً على كل ذلك إلا ابقاء هذه التساؤلات على حالها بلا جواب .

اذا كان (التطور) قانوناً حتمياً فلماذا وقف عند النماذج الحالية ؟

---

١ ــ الانسان والارتقاء : ١٩ .

٢ ــ الانسان في فجر حياته : ١.

ولماذا لم يستوعب الجميع ؟ .

أما اذا كان (التخصص) هو القانون فلماذا هـذه الجعجعة في الحديث عن التطور ؟ ! .



٦

ان نظرية التطور الداروينية تقوم ـ بكل افكارها واصولها وعواملها ـ على فهم معين للوراثـــة واسبابها وآثارها ومـا يمكن أن تلعبه من دور في التحول والتغير والتطور .

ولهذا تكون معرفة مدى صحة هذه النظرية وصوابها بحاجـــة الى مراجعة معمقة لبحوث علماء الوراثة والى تدقيق احدث الآراء فيها ـ ممـا لم يكن يعرفه داروين وجيله ـ لنحدد الموقف منهـــا على أساس علمي صلب لا يرقى اليه الشك ، وليكون حكمنا لها أو عليها حكماً موضوعياً منزهاً عن الميل او العاطفة .

يقول علم الوراثة في ما توصل اليه مندل بعد تجاربه الطويلة :

١ ـ تنتقل الصفات الوراثيـــة من جيل الى جيل بواسطة وحدات تناسلية تسمى الامشاج (الغاميتات) منها ما هو مذكر وهو الحيوانات المنوية وحبوب اللقاح في عالمي الحيوان والنبات ؛ ومنها مـــا هو مؤنث وهو البويضات . وعندما يحدث الاخصاب اثر اتحاد وحدة تناسلية مذكرة بأخرى مؤنثة ينتج جنين يسمى اللاقحة (الزيغوت) .

٢ ـ لكل صفة وراثية عاملان وراثيان ، ولا يحمل المشج سوى عامل واحد فقط ، ولكن اللاقحة الناتجة عن اتحاد مشجين حاملة لكلا العاملين كالطول والقصر مثلاً .

٣ ـ اذا احتوت اللاقحة على عاملين وراثيين متماثلين لصفة واحدة سمي الفرد أصيلاً او نقياً . اما اذا كان العاملان غـــير متماثلين سمي الجنين المتكون خليطاً أو غير نقي .

٤ ـ بعض الصفات الوراثيـة تتغلب وتسود على الصفة المضادة لهـا ، وتسمى الصفة الغالبة (السائدة) والاخرى (المتنحية) .

وهكذا كانت نتائج أبحاث وتجارب مندل قائمة على وراثة ثابتة لا مجال فيها لأي تحول وتغير وتطور ابداً. وبتعبير آخر فان تجارب مندل وقوانينه قد نفت نفياً قاطعاً كل أسس التحول التي قامت عليها النظرية الداروينية.

وتعززت أفكار مندل أكثر وأكثر عندما اكتشف العالم وليم ساتون في أول هذا القرن جهازاً في نواة الخلية الحية يمكن أن يفسَّر على أساسه انتقال العوامل الوراثية وهذا الجهاز هو جهاز (الكروموسومات) التي تعتبر هي المسؤولة الاولى عن حمل الصفات الوراثية عبر الاجيال.

ثم زادت تلك الافكار تعزيزاً وتأكيداً عندما طرح توماس مورغان نظريته الكبرى التي سميت نظرية الجينات، وقد أعلن فيها ان الكروموسومات - وهي الجهاز الفعلي للوراثة - تحمل حبيبات دقيقة تشبه حبات المسبحة، وتُعرف باسم (الجينات) أو المورثات، كما أعلن أن لكل مورثة حجماً ثابتاً ومكاناً محدداً على طول الكروموسوم، ويوجد بنواة الخلية البشرية حوالي

عشرين الف جسيمة توريث تحمل كل منها صفة وراثية واحـــدة .

اما أهم صفات الجينات فيمكن تلخيصها في ما يلي :

١ ـ ان الجينات تكون مرتبة بشكل سلسلة تشبه القلادة . والجينات الآتية من الأب تشكل سلسلة واحدة، والآتية من الأم تشكل سلسلة ثانية تقابل الأولى .

٢ ـ ان الجينات هي ضابطات الوراثة ، وبواسطتها ـ جينات البيضة عند الأم وجينات الحيمن عند الأب ـ تنتقل صفات كل منهما . ولكل جـــين محل معين على الكروموسوم .

٣ ـ ان الجينات تختلف من فرد الى آخر من حيث طبيعتها ونوع الصفة التي تعينهـا ، ولهذه الحقيقة ترجع الاختلافات بين الافراد في ما يخص الشكل والحجم والتراكيب الداخلية والاختلافات الفسلجية الأخرى .

٤ ـ ان كل زوج من الجينات له نفس الطبيعـة بصورة عامة ، وكثيراً ما يقوم فرد من كل زوج بالعمل

بصورة مخالفة لما يقوم به الجين الآخر كلون العين مثلاً حيث يميل الآتي من الأم الى انتاج اللون الاسود بينما يميل الجين الاخر الأبوي المنشأ والذي يقابل الجين الأول الأمي الى انتاج اللون الأزرق .

٥ ـ ان الزوج الواحد من الجينات يوجد بعدة اشكال وتحويرات في مختلف الافراد ، وهذا الزوج قد يوجد باثني عشر وضعاً مختلفاً في الافراد المختلفة ، فواحد من هذه الاوضاع ينتج اللون الأحمر والآخر ينتج اللون الابيض والثالث ينتج اللون العاجي وهكذا .

٦ ـ عندما يبدأ نمو الجين فان بعض المواد الكيماوية ـ وتعرف بالمنظمات ـ تتكون بواسطة مادة الخلية . وهذه المنظمات تحفز الجينات على العمل وتحدد لها مواقع عملها ، فلا يظهر تأثير الجين الا في الموضع المحدد له من الجسم كالجينات التي تسبب ظهور الشعر في الجلد فانه لا يظهر تأثيرها في اللسان ، وذلك بفضل هذه المنظمات .

وقد ذهبت الأبحاث الحديثة الى اشتراك الجينات ككل في اظهار الصفات الخاصة للفرد ، فللجين الواحد

تاثير في اكثر من صفة واحدة .

وهكذا نجد ان الجينات بكل ما فيها من دقة الخلق وابداع الصنعة هي العامل الاصيل في استمرار الكائنات الحية على ما هي عليه من صفات وخصائص وميزات ، وبعبارة اخرى فان واجبها هو (استنساخ المادة الوراثية) كما يعبّـر المصطلح العلمي المعاصر .

وبذلك ثبت ـ بما لا مجال للشك فيه ـ ان صورة الحياة لكل طراز معين من الكائنات تحدّدها صفات وراثيـة في الجينات الموجودة على الشبكة الكروماتينية للنواة ، فإذا ما انقسمت خلية ما الى خليتين انقسمت الصبغيات المتكونة من تجزئة الشبكة الكروماتينية الى مجموعتين متماثلتين ، وتتسلم كل خليـــة مجموعة متشابهة ، بحيث تتوزع الصفات الوراثية بالتماثل بين الخليتين ، وتكون كل خلية نسخة مطابقة تماماً للاخرى في ما تعكسه هـــذه الصفات الوراثية على صور الحياة من طبائع واشكال .

وثبت كذلك ايضاً ان لكل صورة من صور الحياة مهما تضاءلت دقتها وازداد تعقيدهـا عدداً معيناً معلوماً من الصبغيات في كل خلية من خلاياها ، يتساوى في ذلك

ذكورها واناثها، حيث تضمن لها استمرارا احتفاظها بشكلها وتفاصيل تركيبها ، كما تعمل على انتقال هذه الصفات بأسرها من الآباء الى الابناء .

كذلك ثبت ايضاً ان الحيوانات المنوية والبويضات تعد من حيث تركيبها الوراثي بمثابة صورة مصغرة لخلايا الكائنات التي انتجتها ، لأنهـــا تحمل في صبغياتها نفس الجينات المحددة للصفات الوراثية .

وذهبت الدراسات العلمية الى ان الجينات إنما تحقق سيطرتها على فعاليات الخلية عن طريق الانزيمات التي هي مواد بروتينية ، وهـذه الأنزيمات هي مفاتيح التفاعلات الكيميائية المختلفة التي تحدث في الخلية وتجدد فعاليتها .

وقد ثبت علمياً ان محـــل صنع المواد البروتينية هو السايتوبلازم ، او ـ على وجه التحديد ـ سطوح أجسام كروية صغيرة جداً تدعى الرايبوسومات . والجينات ـ كما هو معروف ـ محمولة على الكروموسومات داخل النواة ، وإذن فكيف تنتقل المعلومات الخـــاصة بصنع المواد البروتينيـــة من الجينات في النواة الى الرايبوسومات في السايتوبلازم ؟ .

ويجيب العلم الحديث على ذلك : بأن انتقال هـــذه المعلومات أو ما تدعى (الشفرة الوراثية) انما يكون من طريق نوع من الحوامض النووية يدعى RNA ، وتسيطر هذه الشفرة الكامنة في الحامض المذكور على صنع المواد البروتينية باتحاد الحوامض الامينية مع بعضها [1] .



وعندما نقف على قوانين علم الوراثة ونطلع على موضوع الجينات ودورها في استنساخ المادة الوراثية نخرج بقناعة تامة ان هـــذا العلم بما تكشّف عنه من نتائج عظيمة

---

١ - يراجع في موضوع الوراثة والجينات : هذا الانسان للدكتور حبيب صادر (القاهرة ١٩٥٥ م) وصور من الحياة للدكتور مصطفى عبد العزيز (القاهرة ١٩٦٣م) وتاريخ الحياة لمحمد كامل سند (القاهرة/ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر/ بدون تاريخ) وكتاب الحيوان للصف السادس العلمي للمدارس الثانوية العراقية . وقد نقلنا فقرات من تلك الكتب بالفاظها في بعض الاحيان .

وهائلة قد حطّم أسس النظرية الداروينية فانهارت وتلاشت ولم يبق لها أي رصيد تستند اليه .

وبذلك اتضح وبما لا مزيد عليه ان الميراث العضوي للكائن الحي موضوع بكامله في داخل المادة النووية للخلية ، وان الصفات الوراثية إنما تنتقل من جيل الى جيل بفضل الجينات التي تعود اليها عملية الانتقال هذه محسوبة بحسابات رياضية دقيقة الى أبعد الحدود .

ولقد فرغ العلم المعاصر من تقرير بديهية لا مجال للتردد فيها تؤكد ان هذه المواد النووية لا تشتق من خلية جسدية او حياة خاضعة لزمان معين او مكان مخصوص وإنما هي مشتقة من مواد مثلها كان يمتلكها الآباء والاجداد .

وهكذا قضى علم الوراثة على اصول الداروينية وعواملها الخمسة جملة وتفصيلاً .

ويزيدنا الاستاذ كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ايضاحاً عندما يتحدث عن انهيار النظرية الداروينية بعد تقدم علم الوراثة فيقول :

« ان القائلين بنظرية التطور والنشوء والارتقاء لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة ـ الجينات ـ، وقد وقفوا في مكانهم حيث يبـــدأ التطور حقاً ، أعني عند الخلية ، ذلك الكيان الذي يحتوي الجينات ويحملها .

والمادة لا غرض لها حتى في طاعتها الظاهرة للقانون ولكن الحياة في كل مادة منظمة لها غرض محدود ، هو تكوين شجرة او كرمة عنب أو فيل أو انسان ، في اتفاق تام مع خطة مرسومة محدودة بالجينات .

والحياة ترغم على التناسل لكي يبقى النوع ، وهو دافع بلغ من القوة ان كل مخلوق يبذل اقصى تضحية في سبيل هـذا الغرض ، ففي بعض الانواع ، كذباب مـايو مثلاً ، تموت أفراد كثيرة لفورها حين تتم هذه المهمة . وهـذه القوة الالزامية لا توجد حيث لا توجد الحياة .

فمن أين تنشأ هذه الدوافع القاهرة ؟ ولمـاذا ـ بعد أن نشأت ـ تستمر ملايين السنين ؟ .

لقد رأينا ان الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات ، في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحيـة ، وهي تحفظ التصميم وسجل السلف والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلاً في الجذع والجذر والورق والزهر والثمر ، لكل نبات ، تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والاجنحة لكل حيوان بمـا فيه الانسان .

ان جوزة البلوط تسقط على الارض ، فتحفظهـا قشرتها السمراء الجامدة ، وتتدحرج في حفرة مـــا من الارض . وفي الربيع تستيقظ الجرثومة فتنفجر القشرة ، ويزوّد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذي اختفت فيـه الجينات ، وهي تمد الجذور في الارض . وان الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين ، فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقـــة وكل ثمرة مماثلة لتلك التي لشجرة البلوط التي تولدت عنها .

وفي خلال مئات السنين قد بقي في ثمـار البلوط التي لا تحصى نفس ترتيب الذرات تمامـاً الذي انتج اول شجرة

بلوط منذ ملايين السنين .

لم تحمل شجرة بلوط قط قسطلا ، ولم يلد أي حوت سمكة ، وحقول القمح المتماوجة هي قمح في كل حبة من حبوبها ، والحنطة هي الحنطة ، والقانون يتحكم في التنظيم الذري بالجينات التي تقرر قطعاً كل نوع من الحياة من البداية الى النهاية »[1] .



---

١ – العلم يدعو للايمان : ١٤٧– ١٥٠

٧

وعندما اصيب القائلون بالتطور الدارويني بخيبة الأمل العظمى أثر انهيار افكارهم تحت ضربات قوانين الوراثة ، لم يجدوا بدأ من الخروج على الناس بجديد يعيد الاعتبار لأفكارهم ويحفظ ماء وجوههم ؛ فاعلنوا اكتشافهم الخطير لـ « الطفرة » باعتبارها الطريق الجديد لاثبات التطور .

ومن المصادفات الغريبة التي يجدر بنا الإشارة اليها هنا ان داروين كان قد بنى نظريته على نفي الطفرة نفياً مطلقاً ؛ وعلى اعتبار التحول التدريجي البطيء هو القانون الأساسي لنظريته التطورية ، وفي ذلك يقول :

« اما الأسباب التي حملتني على الشك في أن الاسباب الطبيعية قد تحولت بشكل فجائي ... فعائدة الى ان

تجاربنا السابقة غالباً ما ساقتنا الى الاعتقاد بان التحول الفجائي ذا الأثر الواضح الجلي ، لم ينشأ في الصور المؤلفة إلا بشكل فردي ، ولم يحدث إلا في خـــلال فترات متباعدة من الزمان ».

« أما القول بان أنواعاً عديدة قـد نشأت وتطورت متنقلة في التدرج بطيئة جهد البطء ، فذلك ما لا سبيل الى التشكك فيه بحال من الاحوال » .

« ان علم النشوء الجنيني ليقوم حائلا دون الاعتقاد بمثل هذه الطفرة النشوئية » .

« ان آيـة الطبيعة الثابتة : أن لا طفرة في الطبيعة» .

« ان الانواع الجديدة تبرز في الوجود ببطء وتعاقب».

« ان لدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد ... ان كل التغيرات تحدث في بطء » .

« وحيث ان الانتخاب الطبيعي لا يعمل فقط إلا بتجميع التغيرات الطفيفة المتعاقبة النافعة فليس في قدرته أن ينتج تحورات فجائية أو كبيرة ، انه يعمل بخطوات قصيرة بطيئة» .

« وهكذا فان القانون الذي يقول : ليس في الطبيعة طفرات ، والذي نحيل كل اضافة جديدة الى معلوماتنا نحو تأكيد صحته ، يصبح على أساس هـــذه النظرية معقولا بكل بساطة [1] » .

ولما كان ايمان داروين ببطء التحول ونفي الطفرة بالغاً حد القطع واليقين : فانه قد وقف حائراً أمام تحديد الزمان الذي يحتاجه هـــذا التحول البطيء لينتج الانواع الجديدة المتطورة ، وفي ذلك يقول :

« ان الزمان الذي قطعته العضويات في اشواط تحولها لا يمكن أن يكون كافياً لابراز تلك الاحداث العظمى من التحول العضوي ، ما دام اعتقادنا الثابت ان كل تحول من التحولات لم يحدث إلا ببطء عظيم على مر الحقب [2] » .

ويقول بعد ذلك :

« أحصى مستر كرول مقدار الرواسب التي تجرفها

---

١ — اصل الانواع : ٤٥٠–٤٥٢ و٥٠٠ و٦٢٨ و٧٥٠ و٧٥٧.
٢ — أصل الانواع : ٥٥١ .

بعض الأنهار سنوياً ، مقيسة بنسبة المساحات التي تغمرها فوجد أن الف قدم من الاحجار الصلبة تحتاج الى ستة ملايين من السنين لكي تتحات تدرجاً ، وتنجرف من مسطح مجموع الباحة التي يغمرها ماء الانهار » .

« وقد يلوح لنا ان هذا التقدير فيه مبالغة ... ولكن حتى اذا اختزلنا تقديره الى النصف او الربع لظل باعثاً على التعجب والحيرة[1] » .

ثم يقول بعد ذلك :

« على أنه من سوء الحظ أن ليس لدينا من الوسائل ما نستطيع به ان نحكم حكماً قاطعاً وفقاً لمقياس السنين ، وكم من الزمن يقتضيه تحول نوع من الانواع »[2] .

ولعل هـذه الشكوك الداروينية وحدها كافية في التشكيك بأصل النظرية بما تضيف من (افتراضات)

---

١ ــ اصل الانواع : ٥٥٧ .
٢ ــ أصل الانواع : ٥٥٨ .

جديدة الى تلك (الافتراضات) السابقة التي لم يقم برهان على صحتها ـ مطلقاً كما سلف بيانه ـ .



وعلى كل حال ، فقــد كان داروين صريحاً كل الصراحـــة في نفي الطفرة وجريئاً جداً في رفع شعار (لا طفرة في الطبيعة) .

ولكن العالم الهولندي «دي فريز» أعلن في مطلع هذا القرن افتراض امكان ظهور صور جديدة من الحيـــاة ظهوراً فجائياً بفعل طفرات تحدث بالافراد فجأة فتغير من أحوالهم وتراكيبهم ، وزعم ان الصفات الحادثة بفعل الطفرة يمكن توريثها للاجيال القادمة، وان هذه الطفرات هي السبب في تطور الاحياء .

ثم جاء مورغان سنة ١٩١٠ م فاعلن تاييده لمشاهدات دي فريز وتاكيده لرأيـــه ، فزاد التهليل لهذه الفرضية الجديدة ، وذهب التطوريون على أثر ذلك الى تبني (الطفرة) وما يترتب عليها من (وراثة الصفات المكتسبة)

تعويضاً عن فشل رأيهم السابق وانهزامه أمام نظريات وقوانين علم الوراثة .

وللامانة العلمية لا بد من الإشارة الى ان داروين مع كل نفيه للطفرة كان من المؤمنين بوراثة الصفات المكتسبة، وفي ذلك يقول :

« الانتخاب الطبيعي ... يغير من صفات البيض أو البذور او صغار النمل ، بقدر مـــا يغير من صفات الافراد البالغة »[1] .

ويقول : « ان الانتخاب الطبيعي يسوق دائمـاً الى تحول الصفات وتباينها »[2] .

ويقول : « ان الصفات العقلية في حيواناتنا الاليفة تتحول ، وان هذا التحول قد يورث »[3] .

---

١ ـ اصل الانواع ٢٨١ .

٢ ـ اصل الانواع ٢٨٢ .

٣ ـ اصل الانواع ٥٠٠

ولكن الرجل مع ايمانـــه بتحول الصفات وتغيرها وتباينها وامكان توريثها لم يكن يفهم كيف يتم ذلك ولم يستطع أن يستنبط منه قاعدة او قانوناً عاماً ، وفي ذلك يقـول :

« ان السنن التي تخضع الوراثة لمؤثراتها مبهمة لدينا غالباً ولا يتسنى لأحد أن يستجلي مغمض ذلك السر الذي تورث به الصفات الخاصة في افراد النوع الواحـــد او الانواع المختلفة ، في حين، ولا تظهر موروثة فيحين آخر، أو لماذا يرث الطفل شيئاً من صفات جده او جدته او بعض أسلافه السابقين ؟ .

أو لماذا تورث الصفة الخاصة فتنتقل من الذكر الى الانثى الى اعقابهما على السواء ؟ ، او الى جنس واحد منهما دون جنس ، اكثر من انتقالها الى النسل الذي هو من ذات الجنس الذي تورث عنهالخاصية ، ذكراً كان أم انثى؟»[١] .

وبهذا الموقف القائم على الاعتراف بالجهل من داروين

---

١ ـ أصل الانواع ١٣٢ .

كان اكثر علمية وموضوعية من (لامارك) الذي أعلن فتواه الصريحة بأن « كل الاكتسابات تحققها الطبيعة بتأثير الوسط الذي يعيش فيه الجنس المكتسب فترة طويلة ، ومن هنا ـ عن طريق تأثير الاستعمال المستمر ـ تثبت هذه الاكتسابات . . » ولكن لامارك لم يدعم افكاره هذه بالبراهين والوقائع[1] .

ولما كان كلا الرجلين لم يستطع اقامة البرهان على انتقال الصفات ، لم يجد روجيه غارودي بداً من أن ينوب عنهما باقامة البرهان ـ ولو كان بعد قرن من الزمن تقريباً ـ فقال :

« ان الفكرة الاساسية لنظرية التطور ... تصير غير قابلة للفهم والادراك اطلاقاً اذا لم نسلم بوراثة الصفات المكتسبة من قبل هذه الافراد او تلك ... ولذا لم يشك داروين ذاته ، كما لم يشك لامارك ، في وراثة الصفات المكتسبة التي ينهار عمله بدونها »[2] .

---

١ ـ الانسان والارتقاء ٧٢ .

٢ ـ النظرية المادية في المعرفة ١٥٧-١٥٨ .

وهكذا يقيم غارودي البرهان (رقم ١) على انتقال الصفات المكتسبة ! .

وأي برهان أقوى من هذا البرهان الذي يقول :

لو لم نقل بوراثة الصفات لانهارت النظريـة ، وحيث ان النظريـة لا يصح أن تنهار فلنقل بوراثة الصفات !! .

ثم أردف غارودي ذلك بالبرهان (رقم ٢) على هـذه المسالة فقـال :

«ان احد الحدود المتنازعة ، الوراثة، ذو صفةمحافظة، فهو يجهد الى الابقـــاء على ما هو موجود . والحد الآخر المناقض ، تآلف الاشكال العضوية مع الوسط ، التحول ، هو بجوهره ثوري ، وفي صراع دائم ضد الوراثة القديمة ، يحولها ويضيف اليها صفات جديدة ... وبدون هــذا التناقض ، ودون هذا الصراع بين الاضداد لا يمكن أن يكون ثمـة تنمية للاشكال العضوية ... من هذا الصراع تلد صفات جديدة للنباتات أو الحيوانات ، صفات تتعزز بانتقالها بالوراثة »[١] .

---

١ ــ النظرية المادية في المعرفة ١٥١-١٥٢

وخلاصة هذا البرهان الثاني انه صراع الاضداد !.

ولكن غارودي وغيره من القائلين بهذا الصراع لم يستطيعوا أن يبينوا سبب وقوف هذا الصراع عند حد لا يتخطاه وهو حد (التخصص) كما يعبرون .

فهل (الصراع) قانون أم عمل تهويشي ؟ .

واذا كان قانوناً فهل للقانون الطبيعي تاريخ معين يقف عنده فلا يستطيع تجاوزه ؟ .

وهل من شأن قانون (الصراع) أن يتحرك ويجمد على ضوء رغبات لامارك وداروين .. وأخيراً غارودي ؟!

★ ★ ★

ونعود مرة اخرى الى (الطفرة) و (الصفات المكتسبة) والى ما ذهب اليه دي فريز ومورغان بشأنهما .

وهنا يجب أن لا ننسى العالم الشهير أوغست وايزمن الذي تفرغ عدة سنين لبحث هذه المسألة ، ثم أعلن اعلانه المعروف برفض هذه الفرضيات وثبوت بطلانها ، بعد أن

درس كل الحالات التي زعموا فيها وراثة الصفات المتكونة بالأصل من طفرة ، كالقطط المقطوعة الذنب والبقر ذي القرن الواحد ....

وذكر وايزمن انه قد درس موضوع القطة المقطوعة الذنب التي ولدت صغاراً عديمة الذنب فرأى قطاً ذكراً في بيت مجاور للبيت الذي حصل فيـــه قطع الذنب للقطة المعنية ، ويتصف نوع هذا الذكر بانه لا ذنب له ، فالقطط المولودة بلا ذنب انما كانوا يرثون صفات سلسلة آبائهم التي هي بلا ذنب كما ذكر انّ اختفاء القرن في حالة العجل المولود من بقرة قد تلف أحد قرنيها انما كان بسبب ضعف في الجهاز المادي للوراثة ، أي ضعف في الجينات ، كما بحث كل الحالات الأخرى التيادعاها لامارك وداروين وفندها، واستشهد كذلك بعمليـــة الختان التي مارسها اليهود ثم المسلمون وعدم انتقال تلك الصفة الى الابناء وراثياً .

وهكذا أصبح الرأي السائد لدى العلماء ان المكتسبات لا يمكن ان تنتقل وراثياً ، لا بالتدرج الداروني البطيء ،

ولا بالطفرة الذي فريزية ، وقد أوردوا لذلك عدة براهين نشير الى بعضها في ما يلي :

١ ــ اللغــــة :

فمنذ آلاف السنين أخـذ الانسان يعبر عن افكاره بلغته الخاصة ، ولكن لا يولد عارفاً باللغة ، وإنما هو بحاجة الى أن يتعلم ليتكلم ، ولو وُضع طفل صغير جداً في بلاد لا يتكلم أهلها لغة آبائه وبني قومه فانه يتعلم لغة البلاد التي يعيش فيها .

ان القابلية على تعلم اللغــــة من المواهب الطبيعية الوراثية،ولكن الكلمات والمقاطع التي يتعلمها الفرد ليست وراثية أبداً .

٢ ــ المهارة الفنيـــة :

ان المهارة الفنية في أي جانب من جوانب العمل الفني ليست وراثية ، فلا يولد ابن النجار وارثاً مهارة أبيـه في النجارة ، ولا ابن الطبيب الجراح وارثاً مهارة أبيه في العمليات الجراحية .

٣ ـ المناعة ضد الامراض الميكروبية :

ان قابلية الفرد لمقاومة الميكروبات المرضيــة تعتمد بصورة رئيسية على قابليته لانتاج بعض المواد التي تعمل على اضعاف او اتلاف الميكروبات وهي المواد التي تعرف بالاجسام المضادة ، وفي بعض الحالات يكتسب الإنسان مناعته بعد الاصابة بالمرض وشفائه منه ، ولكن هـــذه المناعة المكتسبة لا تنتقل وراثياً الى الابناء .

ويتضح من كل ما سلف: ان مسألة (الطفرة) فرضية لم يقم على صحتها دليل ، كما انهـــا لدى القائلين بها عملية تعتمد على الصدفة في حدوثها وليس من سبب آخر لها سوى الصدفة ، في حين ان القائلين بالتطور يؤكدون انه قانون لا مفر منه وان الكائن الحي بحكم خضوعه الجبري واللا ارادي لهذا القانون قد تنوع وتحول وتطور من حال الى حال ومن صنف الى صنف .

ان العلمـــاء المعاصرين يعترفون بان سبب حدوث الطفرة في الطبيعة ما زال غامضاً حتى اليوم ، وان كل الذي امكن عمله في السنوات الأخيرة هو احداثها صناعياً

في المعمل، وذلك بتعريض الكائنات الحية نباتية وحيوانية لأنواع معينة من الاشعاعات كاشعة اكس والاشعة فوق البنفسجية، كما أمكن احداثهـــا ايضاً بتاثير بعض المواد الكيميائية وبتعريض بعض الاحياء بصفـــة مستمرة لدرجات حرارة فوق المعدل المالوف لها.

ومع ذلك كله فان الاحداث الصناعي للشيء لا يدل على قانونيته وحدوثه في الطبيعة حتما ومن داخل الذات كما هو المفروض لدى القائلين بالتطور.

ولعل (نكتة الموسم) العلميـة البيولوجية تلك الفقرات التي يوردها جون لويس في بحثه عن الارتقاء فيعلن فيهـا انتهاء عمليـة (التطور) و (الطفرة) و (وراثة الصفات) في الطبيعـة كما يعلن القـائد العسكري نهايـة الحرب أو كما يعلن رئيس الحكومة انتهاء العمل بقانون الطوارىء وفي ذلك يقول:

« في الحقيقة فان نظام صفات البناء الحضاري أهم بكثير من النظام الوراثي[1] ».

---

١ ـ الانسان ولاارتقاء ١١٦.

ويقول :

«عندما يصبح الحيوان ذا صفات خاصة وبنية معقدة الى حد كاف فانه لا يستطيع أن يعيش إلا في الحدود التي تسمح له بها صفاته الخاصة ... وان التمايز والتخصص أمران لا يمكن الرجوع عنهما بعد حدوثهما[١]».

ويقول :

« وحتى الحيوانات المفترسة ... قـــد تكيفت ... وسارت في طريق مسدود امام الارتقاء[٢]».

ويقول :

« لقـد خطت الانسانية خطوات كبيرة الى الامـام مخلفة وراءها الفترة التي كان يطغى فيها اسلوب انتقال الصفات وراثياً . ولم يعد الحداد يورث ابناءه عضلات يديه أو مهاراته المكتسبة ، بل أصبح يعلمهم حرفته[٣]».

---

١ ــ الانسان والارتقاء : ٢٦ ــ ٢٨ .
٢ ــ الانسان والارتقاء : ٥٦ .
٣ ــ الانسان والارتقاء : ٧٢ ــ ٧٣ .

ويقول :

« ان الانسان ليس بحاجة للبحث عن تحسينات عبر التغير التدريجي في البنية الوراثية ، فهذا الاسلوب بطيء الى حد يجعل الظروف السيئة في الكثير من الاحوال تبيد النوع قبل أن يتمكن من اكتساب تغير وراثي جذري [1] ».

وهكذا يعلن جون لويس انتهاء كل تطور وتغير في الطبيعة بعد اليوم . وأترك الى القارىء الكريم التعليق على هذا الكشف العلمي !! بما يشاء .



وخلاصة القول :

ان التطور الداروني ـ كما شرحه داروين ـ قد انهار تماماً تحت ضربات علم الوراثة الحديث ، كما ان التطور القائم على الطفرة لم يقم على صحته دليل . ويكون معنى ذلك كله ان العلم الحديث لم يستطع أن يقيم البرهان على صحة الافكار التطورية المطروحة في عالم اليوم .

---

١ ـ الانسان والارتقاء : ٧٤ .

ويقول الدكتور ولتر ادوارد لاميرنس استاذ الوراثة في جامعة كاليفورنيا تعليقاً على فكرة الطفرة :

« تعتبر الطفرات على قلتها الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ، ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات ـ حقيقة ـ وسيلة للتطور ؟.

ان الدراسة الطويلة المتصلة بهذه الطفرات في كثير من الكائنات وبخاصة في ذبابة الفاكهة المسماة دروسو فيلا ميلانو جستر تدل على أن الغالبيه العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت .

أما الأنواع غير المميتة منها فان التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي الى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد ، فمن الصعب ـ إذن ـ أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية الى التغييرات اللازمة لنشأة انواع جديدة تعتبر اكثر تقدماً ورقياً من اسلافها .

ولكن دعنـــا نسلّم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ ١ ٪ فكم تحتاج مثل هذه الطفرات

من الاجيال لكي يتراكم ويظهر أثرهـــا وينتج عنها نوع جديد. لقد وضح باتو في كتابه (التحليل الرياضي لنظرية التطور) ان تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة».

وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب أن نتصور كيف ان حيواناً حديثاً ـ نسبياً ـ مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمسا ، في الفترة منذ العصر الفجري (الايوسيني) الحديث حتى الآن .

وأخيراً فان دراسة الكروموسومات المعقدة التي تحمل عوامل الوراثة تبين كثيراً من الاختلافات في تركيبها وتنظيمها حتى بين الانواع المتقاربة».

ويقول دوبزانسكي في كتابه «الوراثة ونشأة الانواع»: «ان التزاوج بين الكروموسومات وما يصحبه من عمليات قطع ووصل في اجزائها ، يؤدي الى اختلافها بعضها عن بعض ، وهو اختلاف ضروري لاستمرار حياتها وادائها

لوظائفها الحيوية، فقد ثبت إنه إذا كانت الكروموسومات متشابهة كل التشابه فانها تعجز عن القيام بعملية الازدواج.

ان نظرية التطور المادي لا تستطيع أن تفسر لنا تلك الاختلافات العديدة التي نشاهدها فى عالم الاحياء »[1].

وإذا كان العلماء المعاصرون قد نفوا قدرة « النظرية الداروينية» وافكار «الطفرة» على تفسير «تلك الاختلافات العديدة التي نشاهدها في عالم الاحياء » كما يقول الدكتور لاميرنس ، فان الفلسفه الاسلامية قادرة على كل ذلك ، وقد سبقت العلم الحديث في تأكيد قوانين الوراثة وفي نفي الطفرة والصدفة نفياً قاطعاً كما يتجلى بوضوح في النص الآتي للفيلسوف صدر الدين الشيرازي :

« إذا تأملت الانواع الواقعة في عالمنا هذا وجدتها غير واقعة بمجرد الاتفاقات ، والا لما كانت انواعها محفوظة عندنا ، وامكن حينئذ أن يحصل من الانسان غير الانسان ومن الفرس غير الفرس ومن النخل غير النخل ، وليس

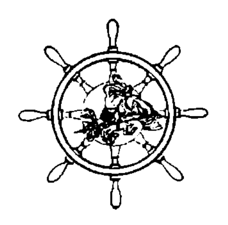
---

١ – الله يتجلى في عصر العلم : ٧٠ – ٧١ .

كذلك بل هي مستمرة الثبات على نمط واحد من غير تبدل وتغير ، فالامور الثابتـــة على نهج واحد لا تبتنى على الاتفاقات الصرفة »[1] .

أما كيف يمكن الجمع ـ فلسفياً ودينياً ـ بين التمسك بحرفية قوانين الوراثـــة وبين القول والتطور ، وما هو الدليل من القرآن الكريم والسنة الصحيحة على ذلك ، فهذا ما سيتضمنه « القسم الثاني » من هذه الدراسة ، ونرجو أن نضعها قريباً بين ايدي القراء .

والحمد لله رب العالمين ، وله الشكر على مـا هدانا اليه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .



---

١ ـ الاسفار / السفر الأول / ج ٢ ص ٥٦ .

المصادر والمراجع

الله يتجلى في عصر العلم/لعدد من العلماء الغربيين ترجمة د.
الدمرداش عبد المجيد سرحان — القاهرة ١٩٦٨ م
الاسفار الاربعة / لصدر الدين الشيرازي طهران ١٣٨٣ هـ
اصل الانواع/تشارلس داروين (ترجمة اسماعيل مظهر) بيروت ١٩٧١ م
الانسان والارتقاء/جون لويس (ترجمة عدنان جاموس)ـ دمشق ١٩٧٠ م
الانسان في فجر حياته/لدوروثي ديفدسن ـ ترجمة طه باقر بغداد ١٩٤٥ م
تاريخ الحياة / لمحمد كامل سند القاهرة بدون تاريخ
تاريخ الفلسفة اليونانية / يوسف كرم القاهرة ١٣٨٦ هـ
رسائل / اخوان الصفا بيروت ١٣٧٧ هـ
الشفاء/لابن سينا ـ(الطبيعيات) القاهرة ١٣٨٥ هـ
الشمس والحياة /د . محمود خيري علي القاهرة ١٩٦٣ م
صور من الحياة /د . مصطفى عبد العزيز القاهرة ١٩٦٣ م
العلم يدعو الى الايمان / د . كرجسي موريسون القاهرة ١٩٦٥ م
قصة الانسان /د . جورج حنا بيروت ١٩٥٩ م
قصة الحياة /د . انور عبد العليم القاهرة ١٩٦٤ م
لويس باستير /د . محمد صابر القاهرة ١٩٧١ م
المادية الديالكتيكية / لعدد من الكتاب السوفييت دمشق دار الجماهير
المقدمة / لابن خلدون القاهرة ١٩٤٨ م
النظرية المادية في المعرفة / روجيـــه غارودي دمشق دار دمشق
نقد الفكر الديني / د . صادق جلال العظم بيروت ١٩٧٠ م
هذا الانسان / للدكتور حبيب صادر القاهرة ١٩٥٥ م

فهرست مطالب الكتاب